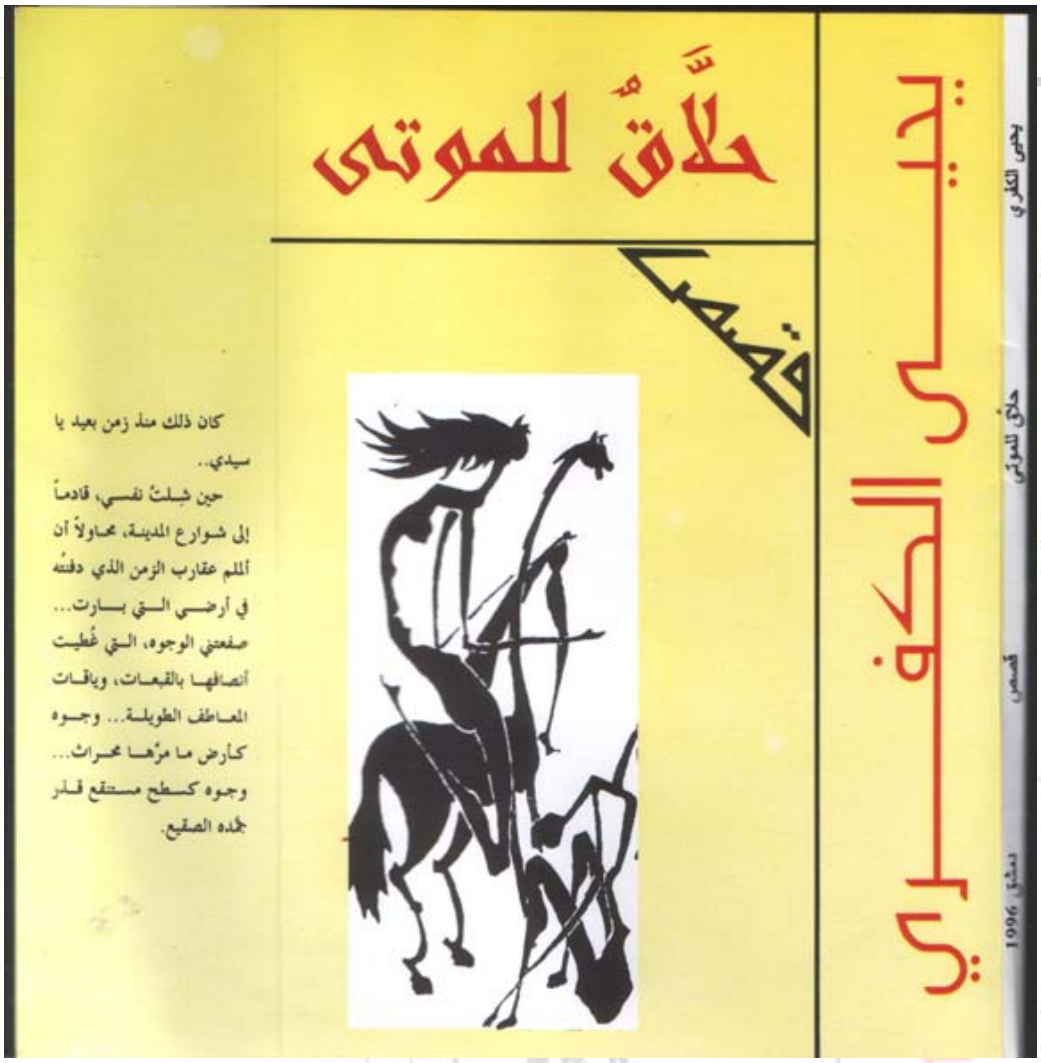

حلّاقٌ للموتى

مجموعة قصصية

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story

عزف منفرد بمثابة التقديم:

من يفترس الحمل الجائع

غير الذئب ... الشبعان؟

ارتاح الرب الخالق في اليوم السابع

لكن... لم يسترح الإنسان

"أمل دنقل"

-1-

كان ذلك منذ زمن بعيد... حين شققت عباب العجاجة قادمة من مزق عباءة العشيرة، وفي المدينة التي رقصت بين عيني وعند الأفق، تعودت أن أكره أكياس الرمل المكدسة فوق الأبنية العالية، والأحذية الضخمة السوداء، ذات العنق، التي تستر خلفها... والصعود إلى الميكرو باصات ذات السقوف الواطئة، لأني لا أحني رأسي، فأنا طويل... طويل جداً يا سيدي.

تعودت أن أمشي والحلم الذي رافقني في كل الليالي المظلمة، وحيدين عبر الشارع الطويل، المعتم... لا قمر... لا نجوم... لا غمام، سوى أعمدة الكهرباء المصطفة على جانبي الطريق... تتدلى منها جثث تنوس حين تداعبها الريح، جثث لم أتبين وجوهها، لكني كنت أحس بسكاكين تنغرز في ظهري وأنا أسير.

أنا أبو زكي...

الذي رافقته السحب، ولحظة الولادة من القرية حتى أسوار المدينة الموشاة بسراويل زاهية الألوان... "ليس لها دكك"

هذا الذي أمامك يا سيدي، هو أنا أبو زكي الذي رأيت نفسي لحظة الولادة -طبعاً أستطيع أن أخمّن أنك لم ترَ نفسك كيف ولدت- أما أنا فقد رأيت نفسي، لم أكن أصرخ.. وكأنني ولدت بلا فم...

كان الليل يمتطي قريتنا... وبضع نسوة التففن حولي.. كن جميلات، جميلات جداً، لكن ارتدين السواد.. إلا واحدة... عجوزاً شمطاء كانت، لا أسنان لها، شعرها الأبيض الطويل ينسدل على كتفيها النحيلتين..

وشعرت في اللحظة التي اقتربت مني، لتقبلني، بالاشمئزاز والتقزز.... ولم أستطع أن أعبر عن شعوري هذا، إلا بالتبول على ثيابها السود... عندئذٍ رمت بي إلى أقرب امرأة لها... وأدارت وجهي صوب المقبرة، مقبرة القرية-ولعنتني ولعنت تلك الساعة... وفي تلك الساعة ماتت أمي، فلم تحد عيناي عن المقبرة رغم الظلمة، وستار المطر المنهمر بشدة... ومن يومها واللعنة تلاحقني، كلما هز الكلب ذنبه.

-2-

- لا تسافر، فدمعة واحدة تسكبها عيناك ستلهب أملاحها جراحك.. قال حمدوش العلو.

قلت: وإن بقيت، ستظل تحرقني أملاح أرضي التي بارت، تفسّخ جلدي كسيجارة ملقاة على قارعة الطريق، أكلتها النار فحولتها إلى رماد حرشفي الملمس.

- أقسم لك يا حمود، لن تجد هناك رؤوساً كالتي هنا.. ابق، ولا بأس إن عاش مقص الحلاقة -الذي تحمله- على المواسم...

لكن لا تسافر.... اسأل من جرّب ولا تسأل طبيباً...

-3-

- ليتني أعبر مساماتك، وتحت الجلد أستقر.

- آه..... يا مريم.

- حمود. "لا تسافر، وحشة عيونك مثل طير غريب بليله... حاير" [1]

كان ذلك منذ زمن بعيد يا سيدي..

وحين شلتُ نفسي، قادماً إلى شوارع المدينة، محاولاً أن ألملم عقارب الزمن الذي دفنته في أرضي التي بارت... صفعتني الوجوه، التي غطيت أنصافها بالقبعات، وياقات المعاطف الطويلة... وجوه كأرض ما مرّها محراث... وجوه كسطح مستنقع قذر جمده الصقيع.

آه يا مريم...

.. يا رائحة الأرض، الأرض المهللة لقدوم الشتاء الذي طال انتظاره... هو ذا القحط يسيجني ثانية... فلا أجد لنفسي ضربة مقص أو موطئ قدم. هو ذا القحط بلون الثلج... بلون ملح أرضي التي بارت... الجدران بيضاء... السرير أبيض... الأغطية، الطاولة، الكراسي، إبريق الماء، الباب، الشباك، أبيض كل شيء هنا أبيض... أبيض، إلاّي في ثيابي السود، وحقيبة عدة الحلاقة سوداء هي الأخرى، أما العالم الذي يحتويني وهذه الأشياء، فمتر... متران بين الجدار والآخر المقابل لا أكثر.. أو... أقل بقليل. متر..

[1] من أغنية عراقية

كم أنا مشتاق لأن أهجر هذا العالم، وهذا البياض، وأعود إلى حيث الجسر العتيق الملفع بالظلمة... وهو يحني ظهره فوق الفرات... يحتضنه كأم تحتضن رضيعها، وأعانقه... أبكي على صدره مثلما كنت أبكي فوق صدر مريم... ثم أترك دموعي المالحة ترفد النهر لتغير طعم مائه، وأحمل عدتي... أركب حماري قاصداً القرى... وهناك سأستمع إلى الأطفال وهم يرددون أغانيهم، التي لم أسمعها ها هنا في المدينة... أبداً...

مطر... مطر عاصي

الله يطول شعر راسي...

راسي بالمدينة يأكل

حبة وتينة....

مطر.... مطر عاصي.... [1]

ويتراكضون حولي وخلفي، يمسكون بذيل الحمار أحياناً... ويغنون، يملؤون الدنيا صياحاً... أنهرهم، يبتعدون قليلاً... ثم يعاودون الركض خلفي والغناء.

- عمو أبو زكي، بتقص لي شعري، وبعطيك أربع بيضات؟
- روح نظفه أولاً....

آاااااه... ها أنا أموت في هذا القبر عدة مرات في كل ثانية، فالصمت قاتل هنا إلى حد الجنون. كان صديقي.. لكن بدأ يضايقني بصمته.. فلم أعد أطيقه، حتى هذه الحنفية التي "تنقط" بهدوء صاخب عند ارتطام قطرات الماء بالمغسلة، لم تعد تؤثر فيه، فأصبح لصوتها لون باهت ككل فجر يطل على هذي المدينة. الأموات بدأوا يضجرون في علبهم منه "وفتح الميت الجالس أمام أبي زكي عينيه الجامدتين". اسمع أنت... أعرف أنك ضجر ليس من الصمت بل من مقصي الذي لم يعجبك.. فرأسك تعودت أن تحلق بآلة حديثة مما تصنعه اليابان وتحتويه صالونات الحلاقة في مدننا..

[1] أغنية شعبية فراتية

اسمع، قل ليابانك تلك الخارجة من هيروشيما... قل لها إنها أحرقت الشعر فوق رؤوسنا.. رؤوسنا التي آلت مرايا... عرايا.

قل لها ثمة رجل عجوز-يدعى أبا زكي- هجر قريته، وترك مهنته، وصار حارساً لمقبرة الموتى في إحدى المستشفيات بفضل صناعاتك.

ثم طقطق أبو زكي مقصه في الهواء عدة مرات، وضعه جانباً، تناول آلة الحلاقة الكهربائية، وراح يقص شعر رأس الميت الجالس أمامه...

لكن في اليوم التالي، حين تمطى الصبح ببلادة، كشرطي تافه... قالوا:

- نحرق هذا الرجل، وبقايا أفكار ولدت في اليوم الثامن لما كان التكوين. فعيناه تذكر بالزمن الأول.. مأفون يدعونا أن نتقوقع داخل صدفة يرميها التاريخ فوق مزابله.. هي ذي اليابان صديقة ترفع التعب عنا، وتعطينا آخر ما صنعه الإنسان خلف البحر... وكذلك أمريكا... ومجرم يغوى التعب ويدعونا بالعودة إليه. فلينف إلى أرض لا ينام فيها إلا واقفاً... وكان...

والليلة... ها أنت الليلة تشرب كأسك والمدينة سوداء. الليلة تحتفل بودلادتك الجديدة، والسواد يغطي كل شيء، يبدأ بالرؤوس ثم يطول حتى يغطي الأجساد التي لم تعد تستطيع السير فوق طرق غطاها الشعر الأسود الكثيف.

الليلة ترقص فرحاً في مدينة لم تعد مدينة، أو في مدينة هي كتلة سوداء من الشعر الكثيف، الذي لا يخترقه ضوء... ولا حتى الشمس.

ارقص يا حمود وغنّ، فأنت تملك الألم الذي يدفعك للغناء، في زنزانة أوسع مما كتب لها السجان أن تكون. أولئك هم موتاك قد خرجوا من علبهم، رافضين العودة إليها، إلا حين تعود لتروي لكل منهم في كل ليلة حكاياك عن مريم، وحمدوش العلو والعشيرة. أولئك هم موتاك قد أغلقوا باب القبر الكبير، ومنعوا الجدد من الموتى من العبور إليه، ثم قالوا:

- أبقوا موتاكم خارج عالمنا، لتتفسخ جثثهم وتقتلكم روائحها، فها نحن نغلق باب عالمنا، ونعلن نحن الموتى، أنّا لن نخرج أبداً حتى يوم الحشر، وفيه سنقف أمام موتاكم بباب الجنة ونمنعهم من دخولها.

اضطربت المدينة وتموجت موجات سوداء من الشعر الأسود الكثيف... ازداد الاضطراب مشكلاً إيقاعاً صاخباً، ينسجم مع رقصك الذي بدأ الليلة.

ارقص يا حمود.. فها هي المدينة تختنق بعد أن رمتك ككلب نجس، قتله الجـــوع فـــي إحدى زواياها.. ها هي المدينة تعود إليك بعد أن رمتـــك واختنقـــت بالـــشعر الأســـود الطويل. ارقص.. فمن جديد ستحدث موتاك واحداً واحداً في كل ليلة عن سواتر الرمل فوق الأبنية، والأحذية الضخمة السوداء المستترة خلفها، والسقوف الواطئة، عن الوجوه المتجمدة كمستنقعات قذرة، عن حمدوش العلو الذي قتلته أرضه البائر، ومريم ما زالت تنتظر....

دمشق 1985

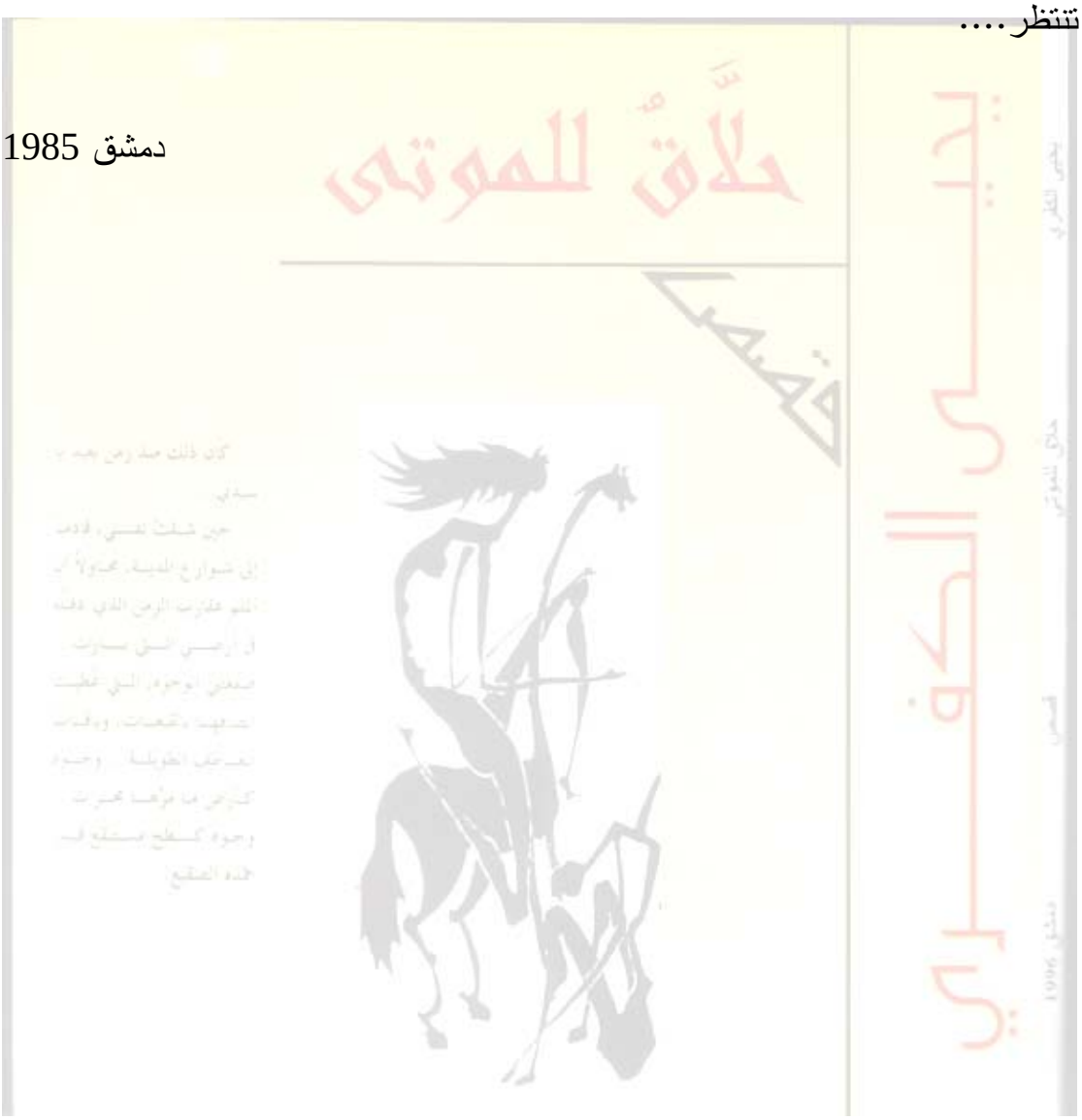

سعدان الشيخ بصراوي وهواجس الشيخ

-1-

قبل أن تنزل من سيارتك المرسيدس السوداء رأيتك ورأيتهما، رجلان طويلان تــرجلا قبلك، مسحا المكان بنظراتهما الذئبية، ثم اتجه أحدهما إلى الباب الخلفي، وفتحه لك كي تهبط...

فهبطت...

لففت عباءتك حول جسمك، فالطقس بارد هنا كالموت، ونحو مكتبك اتجهت، يسير بمحاذاتك الرجلان اللذان هبطا قبلك.

-2-

في مكتبك الدافئ....

واجهتك صورتك المزينة بأوسمة قديمة، كانت قد علقت على صدرك قبل خمسين سنة، حدجتها بنظراتك مدة طويلة ككل صباح، لكن في هذا الصباح، أحسست في داخلك شيئاً ما يتحرك للمرة الأولى، فالتفت وراءك، خمسون سنة مضت، تقاطرت تجــر بعــضها بعضاً، وتجرها كقطار شاخ و"....." عليه الزمن.

- ياه يا بصراوي. قد تأخروا كثيراً... كثيراً.

حدثت نفسك.

طُرق بهدوء باب مكتبك، وبهدوء أُدخلت القهوة ككل صباح أيضاً. لكنها لم تقطع حديثك مع نفسك... بالعكس... ذكرتك بالقهوة التي كنت تشربها، أو وأنت تسكر مع الــضباط الفرنسيين في ظل جثث الذين أسقطتهم في أيدي قوات الاحتلال أسرى.

- أربعون سنة مذ رحلوا... وفي العودة تأخروا كثيراً... كثيراً يا بصراوي.

قالوا لك:

- لك الأرض وما عليها، وأنت لنا، فافعل ما شئت يا بصراوي، أنت هنا الــشيخ، فرحت.... ورحت تجوب السهول والجبال، ككلب تبحث عن فرائسك، وحــين

أربعون سنة مضت مذ رحلوا، أو مذ بكيت لأول مرة لرحيلهم، بكيت كما النساء، ومنذ ذلك اليوم، لم يغمض لعينيك جفن، وأنت تنتظر عودتهم التي وعدوك بها سراً. وفي الفراش يزداد بكاؤك ليلاً، لأنك تعرف أنه سيأتي يوم تنفق فيه، دون أن تترك وراءك رجلاً يحمل أوسمتك حين يجيئون.

-3-

تمد يدك إلى جريدة الصباح، تنزلق نظراتك، تتقرّى العناوين، ثم لا تلبث أن توقفها عن الانزلاق حين تصطدم بخبر ينتصف الصفحة الأخيرة، كان صغيراً بسيطاً.

"تيس في البوكمال يحلب"

لم تصدق، أعدت قراءة الخبر. "ومن مزاياه أنه يعالج العقم".

ولم تصدق، لكن بعد لحظات قلت لنفسك:

- ربما يكون ذلك صحيحاً، فزمن المعجزات لم ينته، جاءك الفرج يا بصراوي، فما بعد الانتظار سوى الفرج.

تلفنت لزوجتك.. وفي الليل، كنت وإياها في جوف سيارة المرسيدس السوداء تغادران المدينة إلى البوكمال سراً.

-4-

كانت الطريق إلى البوكمال طويلة، وزادها الليل والمطر طولاً ومشقة.. في داخلك، كنت تلعن المطر، وهو يتساقط على زجاج السيارة، يرسم خطوطاً تزيلها الريح وقطرات جديدة تسقط لتمتد وتمتد... وتمتد لتزول هي الأخرى، سراً تلعن المطر، مثل خروجك من المدينة سراً... تشغل ماسحات الزجاج، ومن الداخل تمد يدك لتمسح البلور، تدعس دواسة السرعة، وتستغفر ربك بصوت مرتفع تسمعه زوجتك الجالسة إلى جانبك...

وما بين سرك وعلنك بحار جفت المياه فيها، فتشققت قيعانها. ما بين سرك وعلنك... صحارى ماجت رمالها الملتهبة، صحارى ليس فيها إلا جثث فسختها حرارة الشمس والزمن، جثث أنزلتها من المشانق بعد أن سكرت تحتها وتفيأت، أكوام من جثث باردة وأوسمة على صدرك بدأت تصدأ.

الطريق إلى البوكمال طويلة جداً...

وبينك وبين "التيس" حلمت بطفل، انتصب عالياً... عالياً، أعطيته رجولتك ليحمل أوسمتك من بعدك، لكن بدا كمشجب قديم تافه.

تتهادى السيارة على الطريق، والمسافة التي أطالها الليل والمطر ومنزلقات الطريق ما فتئت تتقلص.

مع الفجر كنت وزوجتك هناك، وعندما نزلت من سيارة المرسيدس السوداء، استطلت كمادر أفلت من قمقمه، تنبعث منك رائحة الموت والعفونة، رغم كل العطورات الفرنسية التي دلقتها على جسدك قبل أن تجيء، فانفتحت لك الطريق إلى ضرع "التيس" وهناك قالوا:

- من أراد طفلاً ذكراً فلينبطح تحت التيس، ويشرب من ضرعه.
- لكن أنا الشيخ بصراوي... قلت
- هي مشيئة التيس، وأنت تعلم يا شيخ: التيس... تيس.
- ليرفع إلى الأعلى.
- لا يمكن يا شيخ... ستأتي بنت.
- .....

وانبطحت ترضع مثل جرو.

-5-

عندما عدت إلى المدينة من البوكمال كان المطر قد توقف عن الهطول، لكن السماء ما زالت ملبدة بالغيوم السود، والشوارع قد أفرغت تماماً ليمر موكبك، فكثير من الناس لاذوا ببيوتهم أو بالسيارات التي انحشرنا فيها كالحشرات، وبعضهم لطى مسمراً بجدران وسور المدينة، وتأخر موكبكم يا شيخ كثيراً ونحن ننتظر... انتظرنا ساعة أو يزيد، لم نكن نسمع أثناءها سوى زعيق الدراجات النارية، كان قادماً من بعيد، كذلك

صمت وعيون تحدج الطريق علك تمر...، وحين قال رجالك المنتشرون في الطرقات:

- اخفضوا رؤوسكم فالشيخ... سيمر.

أخفضناها.. وانحنينا... أخفضناها حتى سقطت بين أقدامنا، وحين مـــررت بـــسيارتك السوداء، سرقت نظرة تجاهها، فلم أرَ أحداً بداخلها، فقد كان بلورها أسود هو الآخر.

وبعد أن مررت سرت الحركة في الطرقات، وعلا الضجيج في المدينـــة... ســـيارات وباعة ووقع أحذية.... وبدأ العرق الناضح من الأجساد يتلاشى، كما الـــصمت الـــذي تحول إلى نحنحات تزيل الوسخ المتجمع في الصدر.

-6-

تسد باب المؤسسة الاستهلاكية كتلة من البشر، تتداخل أجسادهم، أيديهم مرتفعة كلوحـــة خربشها فنان تشكيلي ليعبر عن قوة الجماهير.

من بين هذه الكتلة برز وجه لوحته شمس الجزيرة، وجه لامرأة حانية الظهر، قالت:

- العمى، شوي، شوي، كلكم ستحصلون على ما تريدون، فقط انتظـــروا، حتـــى يجيء مولود الشيخ بصراوي ويفرح الشيخ، أنا متأكدة أنه سيزداد السكر والرز والشاي والمازوت و....
- ومن قال لك إن الذي سيجيء ولد...

قاطعها صوت نسائي مرتجف. التفتت المرأة العجوز ناحية صاحبة الـــصوت، كانـــت عجوزاً أخرى، اقتربت من أذن الأولى وهمست:

- إن لزوجة الشيخ بصراوي ردفين كبيرين، وهذا دليل يا حبيبتي على أنها حامل ببنت، وإذا لم يكن كذلك ابصقي على شيبتي.

وأخرجت من تحت عصبة رأسها بضع شعرات بيض.

- لا يا ستي، الطبيب الخاص للشيخ هو ابن خالة أبي، قال لنا إن الأطباء أجمعوا في تشخيصهم على أن الجنين ذكر.

استل رجل عجوز نفسه من الكتلة البشرية، وأشار على المرأتين أن تفسحا له الطريق، ودمدم:

- الكلاب لا تنجب إلا كلاباً

ودبّ باتجاه بيته، يتبعه خيط أبيض من السكر وظل ليس له.

بعد تسعة أشهر، كانت غرفة العمليات تعج بالأطباء، والممرضين والممرضات، وأكياس الدم من زمرة السلبي، والمشارط والشاش المعقم والقطن والدم المنداح على أرض الغرفة. وكنت في مكتبك تستفسر عبر الهاتف عن المرحلة التي وصل إليها المولدون. قال لك الذي على الطرف الآخر من الهاتف:

- مبروك يا شيخ...

فتأوهت السماء من رصاص رجالك، وانحدر الناس كتلة صغيرة ما لبثت أن كبرت مثل كرة الثلج المنحدرة من قمة جبل. قال بعضهم:

- لا بد أن الشيخ سيزف لنا الفرحة بنهاية الحرب.

رد بعضهم الآخر:

- وبذلك يكون هذا أول حزيران لنا.

طللت من النافذة. ابتسمت، وكان الهاتف لا يزال يصلك بالطرف الثاني:

- ذكر أم أنثى؟

سألت.

- ذكر.... لكن قرد.

سقطت سماعة الهاتف...

سقطت الابتسامة... والأوسمة كذلك... سقطت بلا رنين. خرجت للناس... قلت:

- انتصرنا.

- على من؟

جاءك السؤال،

بحثت في جمجمتك عن جواب... طال البحث... أخيراً قلت:

- على مجموعة من الكفرة، خرجت عن سور المدينة ليلاً، تركب الحمير بالمقلوب وتحمل قناديل، تبحث عنه "جل جلاله".

أشرت بيدك... صمت الرصاص... دخلت تجر خلفك ذيل عباءتك التي لففتها حول جسمك.

بعد ساعات وجد تيس البوكمال مقتولاً برصاصة في ضرعه.

-8-

- عجيب أمر جيل هذا الزمان يا شيخ

أملت رأسك قليلاً، أغمضت عيناً، وفتحت الأخرى تجاه القفص الحديدي.

- ما به؟ قلت.
- يقول إن الإنسان أصله قرد.
- أعوذ بالله.

انتفضت.. ارتعش الجميع.. واستنكر القرد في قفصه.

- أقسم لو أمسكت بواحد منهم لقطعت لسانه.
- نعم يا شيخ... لكن الحق على داروين الذي علمهم ذلك.
- من؟
- داروين.
- ومن أي عشيرة ابن الكلب هذا؟
- لا يا شيخ ليس عربياً... إنه إنكليزي.
- لا؟....
- إي بالله...

صمت، حككت رأسك، أردفت:

- يجوز....

مددت يدك إلى ذقنك، هرشتها هي الأخرى...

دارت عيناك في محجريهما دورات قليلات، بينما وسعت ابتسامة صفراء، حين راح السعدان يقفز.... يرقص ويضرب قفصه الحديدي بمواجهتك، كطفل رأى أباه...

ابتسم الرجل الصغير الذي يقف بمحاذاتك.... همس:

- شيخ... يبدو أن السعدان أحبك... هه..... هه

امتعضت... ابتلع الرجل الصغير ابتسامته... وابتلعته، فغاب كما غاب الذين ولدوا طفلك.. عفواً؟... سعدانك، الذين قيل عنهم.... إن الجن قد اختطفهم إلى أقبية عطنة، كرائحتك.

1986

الحسين بن علي يبعث في بغداد من جديد

-1-

الحسين بن علي يعود إلى ما قبل الهجرة

- متى تعود...؟
- لا أدري... لكني قريباً أعود...
- سيقتلني انتظارك...
- ....

... حين تركت يديها شعرت بانقطاع الحرارة التي تسربت إلى جسدك خلالهما... ونفاذ قشعريرة البرد تتغلغل كالسرطان في كيانك... وانسللت بين حارات "الرميلة"... تلتهمك الظلمة..

ومريم لا زالت تقف في باب البيت تشيعك بنظرها... وعمود سقف الغرفة، الذي رأتــه في الحلم -ليلة أمس- يتكسر بشدة، ما برح يأكل دماغها... فيتولد انقباض يدق أوتــاد خيمته في صدرها... بينما زحف الجفاف يشقق حنجرتها التي تيبست منذ لحظــات... همست:

- مع السلامة...

وسقط المطر غزيراً.....

قرع الأبواب وسقوف المنازل، بطرقات قوية... لم تعهد المدينة مثله منذ أمد بعيد... لم يفتح أحد للمطر أبوابه... إلا مريم... ووحيدة كانت في الباب.

ووحيداً كنت تسير في دربك المظلمة حيناً... والمضاءة ببريق الرعد حيناً.

... هادئاً رغم محاولات الريح التي تدعوك للرقص المجنون... فتشدك من ثيابك، ثــم تتركك تمشي كما تشاء.... وتبدو كأنها تلاطفك في لحظات الوداع الأخير... آه يا ذلك الوداع... يا قصيدة عشق لم يستطع السيّاب كتابتها عندما ودع "جيكور"*

* جيكور قرية الشاعر السيّاب

شيء ما يشدك إلى "الرميلة" المترامية الأطراف... دون تنظيم... يشدك إليها وبيوتها تتبعثر كبثور تفترش جسدها الممدود إلى جانب الفرات... تعبق برائحة التراب حين يسقط المطر شتاء... والطيارات الورقية التي تطير في ظروف جوية غاية في السوء، لما تداهمها زوابع الصيف التي تثقب السماء بشكل لولبي... محملة بسفير القمح... وأكياس الورق التي يصنعها الفقراء وقد اختطفتها منهم... متجهة صوب النهر لتنفصل هناك عن الأرض... لكنها تستمر في تكدير صفو السماء.

آه يا الحسين...

ها هي الذكرى تفرّ إلى رأسك... كما العاصفة حين تداهم عصافير الدوري... لتفرّ إلى أوكارها في شجرة حاصرتها الصحراء...

فتلج إلى دماغك تلك الليلة... ومريم... وحارات الرميلة المظلمة.. والفرات... ونباح الكلاب الضالة في الليل... ورائحة التفل المنبعثة من مصنع السكر... وحكايا الجن... الجن التي تجوب الطرقات ليلاً، كما الشرطة تماماً.

هي الذكرى يا الحسين... تنتفض في رأسك كلما شقت سكون الليل صفارة الحارس الليلي، فتأتيك أمواجاً هائجة لا شط لها... تقتحم المدن... وتمر بأعمدة الهاتف التي لا تحصى.... وتعبر إليك الآن...

وها أنت الآن... أنت وحذاؤك تمزقان الطريق نهباً نحو البيت... الطريق التي ترتفع صرخاته ألماً كلما رفعت قدمك وأنزلتها بمضيك نحو الأمام... فيمتد دونك بلونه الأسود، يتوسطه رتل من أشجار نخيل تعانق ضوء القمر... الضوء الذي يكشف عن حراب تنتصب متأهبة إلى كل الاتجاهات، فتتبين سعفات النخيل وعلى ذوائبها وقفت النجوم تلتمع. تمسح وجهك غلالة حزن.... تخفيها أعمدة النور وهذا الشارع الفارغ حين يداهمك شعور خفي يعمل في قلبك شر تمزيق... يرتفع إلى أعلى ويهبط... ويرقص كديك مذبوح...

تسمع أنيناً... تلتفت ناحية الصوت... آه... هو ذا "دجلة" يرقص محزوناً.. تحدق في وجهه.. تنعكس صورتك ونفس غلالة الحزن تراها تعسكر فيه... تلتفت يميناً... شمالاً... أمام... خلف... عيون... عيون... عيون... بتثاقل تجر قدميك. وقلبك لا زال مشدوداً إلى "دجلة"... تتركه وتمضي... وإيقاع الرقص الممزوج بالأنين... يتبعك.

-2-

خروج على طاعة خليفة بغداد:

... الوقت متأخر...

والليل بدأ يأفل، تسحبه خيوط ضوئية تعلن أن الفجر في طريقه للانبثاق. تستلقي على فراشك، تريح رأسك إلى الوسادة... ثم تسدل جفنيك... وتنام.

... قبل لحظات وفي الليل الملبّد كانوا أربعة يتسللون من غرفتك خارجين كل إلى بيته. يسرعون الخطى في كثير من الأحيان، ويندسّون بالأزقة المظلمة في بعض الأحيان..

..."لا لقاء بينكم بأمر من الخليفة المعتصم بحبل الله" بلا سبب... فقط لأنكم آتون من أعماق الفرات... لكنهم أربعة، وكنت الخامس التقيتم تحت سقف من الأعمدة المهترئة والطين.

تحدثتم عن كل شيء في هذا العالم المتقدم والمتأخر... عن الجنون النووي الأمريكي... وآلاف الأطفال الذين يموتون جوعاً يومياً في العالم الآخر... مخيمات الفلسطينيين ومخصصاتهم التي تسرقها بعض الحكومات العربية... السمن الهولندي الذي يغزو الوطن العربي.. سيارات الـ"رينو" والـ"مرسيدس" والـ"بويك" وهي تفتت شرايين المدن الغارقة في محيطات النفط.. والأزمة أمام أفران الخبز المحروق... تحدثتم عن كل ما في العالم.

ذهاباً مع خطوط الطول وإياباً بخطوط العرض... مروراً بالأمم المتحدة وقوات الانتشار السريع، والقوة المتعددة الجنسيات، والفيتو الأمريكي... وفيتنام.. وسقوط الشاه، ورصاصة المنصة التي قتل عليها "أمير المؤمنين" بولاية مصر... مروراً بأشعار أمل دنقل ورسائل توفيق الحكيم إلى الله... وضبابية القلم العربي في ساحة الأنظمة.. وحرب الخليج.. ثم الأسلاك الشائكة الرابضة بين دجلة والفرات... لم تنسوا الحديث عن "الرميلة" و"بغداد"...

وحين انسلّوا في الليل أربعة، ثقبت أجسادهم "عيون" تلفها العتمة.

-3-

زيارة الخليفة لبيت الحسين بن علي:

- طق... طق.. طق..

... هادئاً يأتيك الصوت....

تتململ في فراشك... ثم يعاد الطرق ثانية...

- طق... طق.. طق..

تفتح عينيك... تنصت... والصمت مولود مرمي في أعماق بئر لا حياة فيها... تــزيح اللحاف عنك... تشق العتمة إلى الباب، لترى من القادم قبل انبلاج الفجر...

- من.....؟

- أنا.... افتح يا حسين.

تسري الطمأنينة إلى نفسك... تخطو بخطى متئدة نحو الباب... تفتحه... تخرج... ترد الباب خلفك بهدوء، و... حين تلتفت ناحية الرجل.... تلمع في عينيك الأسلحة. قبل أن تتبين الوجوه.... يخترق الصوت أذنيك:

- الحسين بن علي... مواليد الرملة... وتقيم هنا في بغداد؟

- نعم....

- تفضل معنا.

- إلى أين....؟

تقطع اللكمات السريعة سؤالك... لتخر صريعاً... تمرّ لحظات... تشعر بعدها أنك تهتز داخل سيارة يطبق الصمت عليها، إلا محركها الذي راح يئن بقوة... ولا تــرى أحــداً، فتلفي عينيك معصوبتين...

-4-

زيارة الخليفة الثانية للحسين بن علي:

بلا ضجيج يجيء...

بلا ضجيج يطل الرأس ذاته بعمامته، ويبدو كصندوق فارغ... يطل من درفة باب الزنزانة، يرسم على وجهه ابتسامة صفراء.. لا تبتعد عن "التكشيرة" كثيراً....

- إي صديقي الحسين....

قيل إنك تضع في بيتك حبل غسيل لا تنشر عليه ثياباً.. لكن تري الناس أشياء لم نرها حين رأيناه.. فما رأيناه ليس سوى بضع لقاطات وضعت من زمن بعيد... وبعضها جديد وأماكن لأخرى ستوضع... فأين الترخيص؟

- ولكن يا مولانا الخليفة –يا خليفة الله في الأرض– قد أوصى الرب من خلف المنبر وأمام جمع من ملائكته الذين صفقوا له بحماس منقطع النظير... قد أوصى أن يصنع كل منا حبل غسيل حين يكون لذاك لزوماً... هو ذا ترخيصي يا مولانا كتبه الرب في التوراة وفي الإنجيل... وفي القرآن... وفي صحفنا المحلية كذلك... فماذا فعلت؟

أين الذنب يا مولانا إن أذنبت؟

- اصمت... اصمت... اصمت...

هذا الترخيص أعطاه الرب لمن لا يملك يدين وعينين وأذنين وفماً... اصمت... وإلا أرسلت رصاصة تفتح في رأسك نافذتين... يدخلهما جوعى وكلاب الأرض لتلعق دمك وتأكل أحشاءك.

- لكن يا مولانا... لا أذكر إلا ما قال الرب...
- آه.. ها أنت تكفر ثانية حين تلوك اسم الرب... أقسم بحذاء الرب، وثانية أقسم بحذائه هذاالرأس يخطو نحو أنشوطته... هيئه يا الحسين... فعبد الله بن محمد سيلقاك غداً.. [1]

يخرج صافقاً الباب خلفه... والزبد يمرغ وجهه..

يقف السجان أمامك... يمسك بباب الزنزانة... يحكم إغلاقه... يحدق في وجهك طويلاً... ثم يغيب...

[1] عبد الله بن محمد: قاد ثورة عبيد البصرة إبان حكم المعتمد بأمر الله في القرن الثالث للهجرة.

-5-

الحسين بن علي يولد في بغداد

يصر باب الزنزانة صريراً مرتفعاً، فيرتد صداه في الليل الساكن، وأنت تتكوم على نفسك... وقع خطوات قليلة، لا يلبث بعدها أن يعم السكون كل شيء... ثمة أحد... يمسكك من خلف عنقك... يرفعك إلى أعلى... تقف.. يدفعك إلى أمامه... تستدير إليه... السجان... يضع على عينيك ربطة سوداء... ثم تسيران في بهو السجن، وباب الزنزانة ما زال مفتوحاً.

يبدأ رحلة الانتظار القصيرة... وقد بدا كفرس بلا فارس.

بعد دقائق...

يتوقف هدير السيارة... ينزلك السجان... وتسير بضع خطوات... وبضع درجات خشبية تصعد.. تتوقف... يفك الربطة السوداء... ودفعة واحدة يندفع العالم إلى عينيك عبر الأنشوطة المتدلية.. الخليفة القابع كصرصار في زاوية العرش.. ورجال بلا ملامح يلتفون حوله... والنهر الذي يجري بجانبك بصمت.. مثل شيخ عجوز يتلمس طريقه وهو ينوء تحت كومة حطب ثقيلة... مريم... والرميلة.

تمسح وجه الخليفة بنظرات ثاقبة.. وتطيل فيه النظر... تتتسع حدقتا عينيك... تتسع... تتسع... تتسع... وفجأة تتجمد الصور فيها بعد أن يدفع أحد رجال الخليفة الكرسي من تحتك.. لتسمع قرقعة عظام رقبتك تدوي بصوت مرتفع... تفزع الخليفة والغربان المعششة بالأشجار المتاخمة للشط... تمر لحظات كسلحفاة تزحف فوق لوح تتكي أملس... يتوقف فيها تيار المياه المندفعة إلى الرافد الآخر ثم إلى الخليج... عندما يعود طيفك إلى المدينة ماراً فوق النهر.

الرقة 1984

خطوط في لوحة رسمتها الحرب

نظر من خلف النافذة، يبحث عن شيء ما وراء الأفق. أفكار كثيرة تجول في مخيلتـــه، رجع إلى الوراء وجلس على "الفجّة" تمدد، زاغت عيناه بسقف الغرفة الخشبي. حـــول نظراته إلى الصورة المعلقة بالجدار، ارتسمت عليها خطوط وهميـــة مـــصنوعة مـــن الشوق. امتدت مخيلته بأشياء كثيرة. تقلصت. الليل الدامس يلف المدينة، البرودة تنفـــذ إلى الأجسام الممتدة في الغرفة. موسيقى الريح الخفيفة ترقص الأشجار المصطفة على طول النهر. وقف مجدداً وراء النافذة. نظر، خط أبيض يجري بهدوء تـــام. الفـــانوس بأشعته الخفيفة يعكس ظلّ (حمود الشبلي) على أرض الغرفة وجدارها مناصفة. زوجه تشخر بصوت مرتفع، ابنته تحلم بليلة زفافها القريب.

رسم صورة وهمية بذهنه تعبر عن حالة ابنه على خط النار.

-1-

- ما بك يا رجل لا تفارق هذا المذياع؟
- لا بد أن صاحبنا ممن يحبون السياسة.
- لم تقل لنا ما هي آخر الأنباء؟

حدق بهم "حمود" بنظرات ساخرة، تابع طريقه بعربته التي يجرها حصان أبـــيض لـــم تلوثه أي نقطة سوداء. شد عنان الحصان قليلاً ثم أرخاه، أســـرع الحـــصان، اســـتوقفه أحدهم، نزل، حمل الأغراض على كتفه ورماها على ظهر العربة، سار صاحب الأمتعة أمامه دليلاً. الشمس قطعت نصف طريقها في السماء متجهة نحو الغروب. رفع صوت المذياع قليلاً، عندما قطع المذيع نشرة الأخبار بقوله "في الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر هذا اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على مواقعنا الأمامية على طول خط إطلاق النار وتقوم قواتنا المسلحة بالرد على مـــصادر النيـــران وإســـكاتها، كـــذلك حاولـــت مجموعات من طائرات العدو خرق مجالنا الجوي في القطاع الـــشمالي مـــن الجبهـــة، فتصدت لها مقاتلاتنا، وتدور الآن معركة جوية بين طائراتنا وطائرات العدو، هذا، ولا تزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن".

اخترق صوت المذياع أذني الرجل صاحب الأمتعة، عندما قربه حمود إليه. تابع المذيع نشرة الأخبار، تلاها صوت فيروز الذهبي، قفز الرجل إلى العربة جالساً بجانب حمود الشبلي، تحادثا عن الحرب أيام حزيران والنكبة. ابتسم ساخراً من أفكار رأس الرجل التي امتلأت خوفاً من الحرب. أنزل الأمتعة متمتماً مع حنجرة فيروز، ضائعاً بالتحسبات، لكنه ابتسم للرجل قائلاً:

- نصف ليرة ماشي الحال.

العربة تشق طريقها عبر الأزقة في المدينة، عبر المارة من أناس وسيارات وكلاب وأشياء أخرى. تتمايل عجلاتها يميناً ويساراً مشكلة خطاً أعوج. زخات المطر الخفيفة تتساقط على الطريق المعبدة، تتصاعد منها سيمفونية هادئة.

صورة ابنه لا تفارق ذهنه. أذناه تلتقطان البيانات العسكرية المتتالية. بسمة لا تفارق وجهه بعد كل بيان، الفرح يغمره، يخرج من المنزل ليزفّ أنباء المعركة إلى أهل المحال التجارية الكبرى.

برم صاحب الدكان كرسيه الدوار، وقال ساخراً محاولاً إسكات حمود عن أنباء المعركة:

- هس... لسع ما نسينا السبعة وستين.

غضب حمود، لهب قلبه ناراً حارقة، خرج من الدكان لا يرى طريقه.

- كان علي أن لا أذهب إلى هؤلاء لأخبرهم عن شيء لا يهمهم.

انفرجت أساريره عندما سمع بياناً عسكرياً يقول إن الجيوش العربية تتوافد على الجبهتين السورية والمصرية. وصلته أخبار بأن الجيش الأردني عندما مر بمدينة درعا خرجت دباباته مزينة بالزهور وأقاموا دبكات فرح بكل القرى، صدق هذا الكلام عندما مر بمدينته جيش عربي فوق الفرات فركض يقبلهم على جباههم.

-2-

1. والله يا سيدي ما رفعت سعر البندورة والفليفلة أبداً... أبداً.
2. اخرس يا كلب.. وين المشتري؟
3. هو بنفسه يا سيدي.. وهذي بضاعته اللي اشتريتها.
1. اطلع بالسيارة... كلب... يعطيك العافية يا أخ.

2. أهلين سيدي.

شقت السيارة طريقها وسط المتجمهرين الذين التفوا حول التاجر ورجال التموين وراح بعضهم يقول بأنه يستحق ذلك. شدّ حمود رسن الحصان ومضى مبتسماً، ساخراً من هؤلاء الناس القلة.

سحابات الغيوم في السماء تسير، تكشف قليلاً عن وجه الشمس، يتجه حمود بعربته نحو النهر، يغوص في الشاطئ قليلاً، يمسح بقطعة خام مهترئة مبللة بالماء جسم الحصان. جماهير من المدينة تتجه نحو مكان معين، مكبرات للصوت ترتكز على سيارات عدة، تتبعثر منها نداءات موحدة تخترق حدود المدينة، يرتد صداها، يهرع حمود الشبلي تاركاً حصانه وسط الشاطئ يعلف من "عليقته" يسرع إلى المستشفى الكبير، يشمر عن ساعده، يغمض عينيه سارحاً بفكرة النصر. تغوص الإبر الكبيرة في ساعده، تمتلئ عدة مرات، تبتسم له ممرضة جميلة.

على ضوء الفانوس الصغير يفتح حمود الشبلي كتباً لابنه الذي يقف على خط المواجهة، لافّاً نفسه "بكبوته" العسكري./كتاب عن فيتنام- كتاب عن عربستان ولواء اسكندرون وهيروشيما وفلسطين. كتب عديدة عن ثورات عالمية أيضاً/.

رسالة:

/ولدي... إياك أن تنسى هؤلاء الذين قرأت عنهم في كتبك، لا تنسَ أطفال وشيوخ هيروشيما، أطفال فلسطين الذين ينشرون ثيابهم المغسولة بين الخيام، إذا تذكرتهم وأنت على الخط فسأرفع رأسي بين أهل المدينة، أرفعه حتى يصل إلى السماء... سنفرح بك وبأختك بعد عودتك.

"والدك حمود الشبلي"

-3-

انطلق من جانب الفرات، متجهاً نحو كراج الباصات، سمع أن ابن جاره قد أصيب. ذهب وأهله ليطمئنوا على صحته، الريح باردة، الظلمة موحشة، المطر يتساقط بغزارة قوية. انطلق الباص يتدحرج ككتلة وسط خط أسود، مجارياً خط الماء الأبيض، يجر خلفه خيطاً من الدخان الأسود الكثيف، يتلاشى عندما يبتعد الباص. الركاب ما زالوا راقدين، لم ينم منهم أحد. أدار السائق آلة التسجيل وراحت أم كلثوم تتأوه من الحب

كراج الباصات في حلب مزدحم. صعد إلى باص دمشق وجلس ينتظر حتى يمتلئ. ثم انطلق.

- أبي لماذا أتيت؟
- جئت أطمئن عليك.
- بلّغ أمي وأخوتي، أنني سأجيء في أول الشهر القادم. وأريد أن أبارك لأختي بالزواج.
- كما تريد...

المدينة كما هي لوحة رسمتها الحرب. تعج بالازدحام. العمل سارٍ بشكل جيد. الحي امتلأ وروداً ملونة من جميع الألوان. الفرح يعم البيت.

الأيام تمضي، تلتحفها الحرب، البيانات تخدش طبلتي أذنيه. الزواج انتهى. السماء تمطر. النهر يجري. الورود يبست. الحزن يخيم على البيت. ببطء يهبط، يطرق الباب طرقات خفيفة، ينقشع الحزن، ينهض حمود فرحاً ثم... يسقط حزيناً.

مشى أمام الجنازة، ارتفع رأسه، اصطدم بالسماء، وجهه يمتلئ بسمة حزينة، أكملت خطوط اللوحة التي رسمتها الحرب.

الرقة 1980

قراءات في وجه الوطن المقاتل

عندما حدق بعينين مليئتين بالاستفسار نحو الأمام البعيد، لاح له أول طابور الـــراحلين نحو الشمال خطاً متعرجاً، كل يحمل ما خفّ حمله.

في مؤخرة الطابور البشري كان وجدّته يحاولان اللحاق، توقفا، التفتت الجدة إلى وراء، مطلقة لنظراتها العنان باتجاه المدينة القابعة هناك بعيداً –عند بداية الطريـــق، ركعـــت تجهش بالبكاء، إلى جانبها وقف "عزام" ابن العاشرة.

سألها عن والديه، وعن بكائها، وإلى أين يذهب هؤلاء الناس، ولماذا؟ رفعـــت عينيهـــا الممتلئتين بالدموع التي انسابت مع تجاعيد وجهها، ضمته إليها، أنصتا لصوت المـــدافع وهي تمزّق حدود المدينة، قبلته.

– ستعرف ذلك يوماً ما يا بني...

ثم تابعا ليلتحقا بالطابور الذي راح يزحف بين السهول الشاسعة ببطء شديد وتحت أشعة الشمس وحرارتها الحارقة.

–1–

جلس قبالة جدته، يفصله عنها "الصاج" الذي احتوى بضع جمرات قليلة، يتصاعد منهـــا الدخان خطوطاً ملتوية لتتلاشى، القنديل معلق إلى عمود الخيمة، يصدر عنه بـــصيص ضعيف، الريح في الخارج تصفر، تتسلل بين الخيام بينما الليل يفترس المخـــيم، تطلّـــع بوجه جدته التي تململت بجلستها كي تروي له رحلة سنين ســـوداء تلتحـــف بـــشتاءات وأصياف طويلة، ترويها للمرة المليون.

استرخت عضلات وجهه لترسم وجهاً أسمر يمتلئ باللهفة والحزن الشديد، يلتصق بـــه شارب أسود وحاجبان كثيفان، أخذ ذهنه يتصور مباشرة ما ترويه جدته، القتل التعذيب، والده الذي رفض الخروج من بيته، والدته التي بقيت عند جثته حتـــى ســـقطت قذيفـــة حولت البيت إلى قبر لهما.

الرحيل نحو المرفأ حيث قوارب الإنكليز لتقلّهم إلى "يافا" الليل، البحر، الحـــي، اليهـــود وأسلحتهم الفتاكة، رابين الضابط الصهيوني الذي حاول مضايقة والدته، إنه يتخيله جيداً،

تقلصت عضلات وجهه، عيناه تسمرتا بشيء ما... ربما بوجه جدته... يحاول أن يرى حقائق أكثر لا تستطيع التعبير عنها، يقرأ ذلك الوجه رغم الضوء الخافت..

مال إلى الفراش وتمدد، أرخى جسده، أسند رأسه إلى كفيه، أغمض عينيه، حاول النوم، لكن ذهنه ما زال يعيد عرض ذلك الفيلم. أول الفيلم أسود أسود، يظهر طابور النـــزوح إلى الضفة الغربية للنهر من يافا، النزوح من القنيطـــرة، إلـــى بيـــروت، حزيـــران... أيلول...و"...." وهذا حزيران آخر، أسود كالنفط، يتدفق ملوّناً الجباه باللون الأسود.

-2-

الحركة في الشوارع غير منتظمة، الاضطراب بادٍ على الوجـــوه، الخـــوف، صـــوت الانفجارات، طلقات الرصاص، صراخ الأطفال في الملاجئ-مقابر الأحياء- طـــائرات العدو تحلق في السماء تقصف المخيمات، أبنية بيروت تشتعل بالحرائق فيغطي الـــدخان الأسود المدينة، صفارات الإنذار، زعيق سيارات الإسعاف.

"آلو... سيارة "7" إلى التماس، حاذر الشوارع الواسعة". عندما ضغط عزام على مدوس الوقود جأرت السيارة الممتلئة بطعام المدنيين، اختفت وراء الغبـــار، لا يـــسمع ســـوى صوتها الذي راح ينخفض شيئاً فشيئاً، مهشمة الزجاج، يتسلل الهواء حـــاراً عبرهـــا.. وضع نظارته على عينيه لتقيه الهواء وإلى جانبه استقرت الكلاشنكوف بجمالها الرائع.. سينقذ جريحاً، سينقذ أطفالاً جائعين من الموت، فقط لو زاد من سرعة سيارته "الستيشن" قليلاً، خفق قلبه بشدة، يداه مسمرتان بالمقود، تزداد ســـرعة الـــسيارة، يـــضغط علـــى المدوس أكثر، تزداد، يرتجف مؤشر السرعة عند آخر رقم... أكوام البيـــوت والأبنيـــة المهدمة على جانبي الطرقات، يرفع قدمه، ينعطف إلى أحد الأحياء...

هناك حيث خط التماس مع العدو كان يرقد أحد المدافعين، خلف متاريس الرمل، وهـــو ينزف من كتفه اليمنى... توقف عزام، سحب رفيقه إلى السيارة، سقطا منبطحين وراحا يزحفان بعد أن انهالت عليهما رشقات رصاص خاطفة.

الغضب يعم كل مكان من المدينة، وابل من القنابل يسقط عليها، على الشرفات والشوارع.. جثث تفرش الأرصفة، تتسلل بينها القطط وهي تموء، تحاور الذباب في طنينه، ساعد عزام رفيقه على الصعود إلى السيارة، احتل مكانه خلف المقود ثم خلّف وراءه جرذان الأرصفة وأكوام الجثث والتراب والزبالة وطلقات الرصاص وقذائف المدافع و"الآربجي".

بينما كانت السيارة تشق طريقها بسرعة فائقة على خط مستقيم خارج أماكن التماس متجهة إلى مبنى مستشفى الهلال الأحمر الدولي، تبعتها طائرة برشقات رشاش وصاروخ. ينعطف عزام بسيارته إلى الأزقة ثم يدخلها إلى أحد المحال التجارية المخلوعة الأبواب.

"من يحب الوطن لا يربكه مأزق كهذا، إلى البيت هناك زوجتك ستعتني به. ثم عد إلى سيارة الطعام فهناك من ينتظره".

هذا ما جال في ذهن عزام وهو يسند رفيقه إلى كتفه، يسحبه خارجين من المحل إلى البيت...

-3-

- مئات القتلى والجرحى من المدنيين إثر القصف الصهيوني على بيروت الغربية...
- أفراد العصابات الصهيونية يرتكبون مجازر وحشية داخل المخيمات الفلسطينية في صيدا وصور...
- العرب يحرزون المركز الأول في الحصول على أكبر عدد من قرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية والأمم المتحدة و... وحتى نوبل نفسه رحمه الله... وآخر انتصار لهم قرار 508 و 509.

تمعّن بالصحيفة المهترئة بتقزز، صفراء تشربت ماء حتى غدت متموجة بالية، رماها بعيداً عنه بصق عليها... على كومة تراب أمام باب الملجأ كان يجلس، يدخن سيجارة، نظر في الداخل، كل شيء يسير بهدوء عدا صراخ الأطفال الذين اشتدت عليهم موجة الحر، تفرّس في الوجوه، إطارات لصور من الحزن الطويل. في الأفق البعيد كانت العاصفة تعرّي مدن الصمت، وأمام صمت المدن هذا لم يكن لأوراق التوت سوى أن تسقط تاركة أضواء الشموع تتراقص بترانيم موزونة على أصوات طلقات الرصاص

"على كلٍّ إنها استراحة درب طويلة"

وأخيراً استسلم لتلك الحقيقة التي لا بد منها. نهض من مكانه،

- بابا لوين رايح؟
- ناح البحر... بتروح معي؟
- في طيارات... ما تروحش.
- ما تخفش يا أحمد... راجعلك..

أدار ظهره للملجأ... وصوب البحر اتجه...

-4-

أفواج المقاتلين والمودعين بأرض الملعب كخلية النحل، زغاريد النساء اخترقت السماء ملعلعة يرافقها أزيز الرصاص، دندن عزام وهو يحمل أحمد وحوله جدته وقفتا ملتصقتين به، دندن بصوت منخفض:

أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيع والمكبل

وحملت رشاشي لتحمل بعدنا الأجيال... منجل.

ثم بدأ يرتفع صوته ليتحول إلى عاصفة، الجماهير المحتشدة مقاتلين ومودعين تردد معه بقوة وهي ترفع الأسلحة وأصابع النصر، وبعضها كان يمطر المقاتلين أرزاً لتزداد ألبستهم به جمالاً آخر... احتضن جدته وابنه وزوجته، احتضنهم بقوة، قبلهم، أصبحوا كتلة بشرة ممتزجة ببعضها، يخرج منها بكاء خفي. تحرك رتل الشاحنات نحو المرفأ، وثانية يتجه عزام نحو المرفأ بعد مرفأ يافا، قفز إلى الشاحنة ولوح بيده مودعاً ثم رفع بندقيته، رفعها حتى غرزها في السماء أبحرت السفينة مبتعدة في لج البحر، ابتعدت.

لم ينزل بندقيته لأنها كانت تصنع في السماء شرخاً ينبئ عن حدث مشؤوم قادم لا محالة.

تفرّس في البحر الذي بدأ يحتضر، حبس الدموع في عينيه ثم جلس ينظف بندقيته وهو يحدق في بيروت يستعد للجولة القادمة.

تعقيب: عندما خيم ليل الخميس 16 أيلول سقطت آلاف الشهب والنيازك من السماء، أما وجه جدته فكان مضيئاً، يعلن أنه ما زال يقاتل....

الرقة 1983

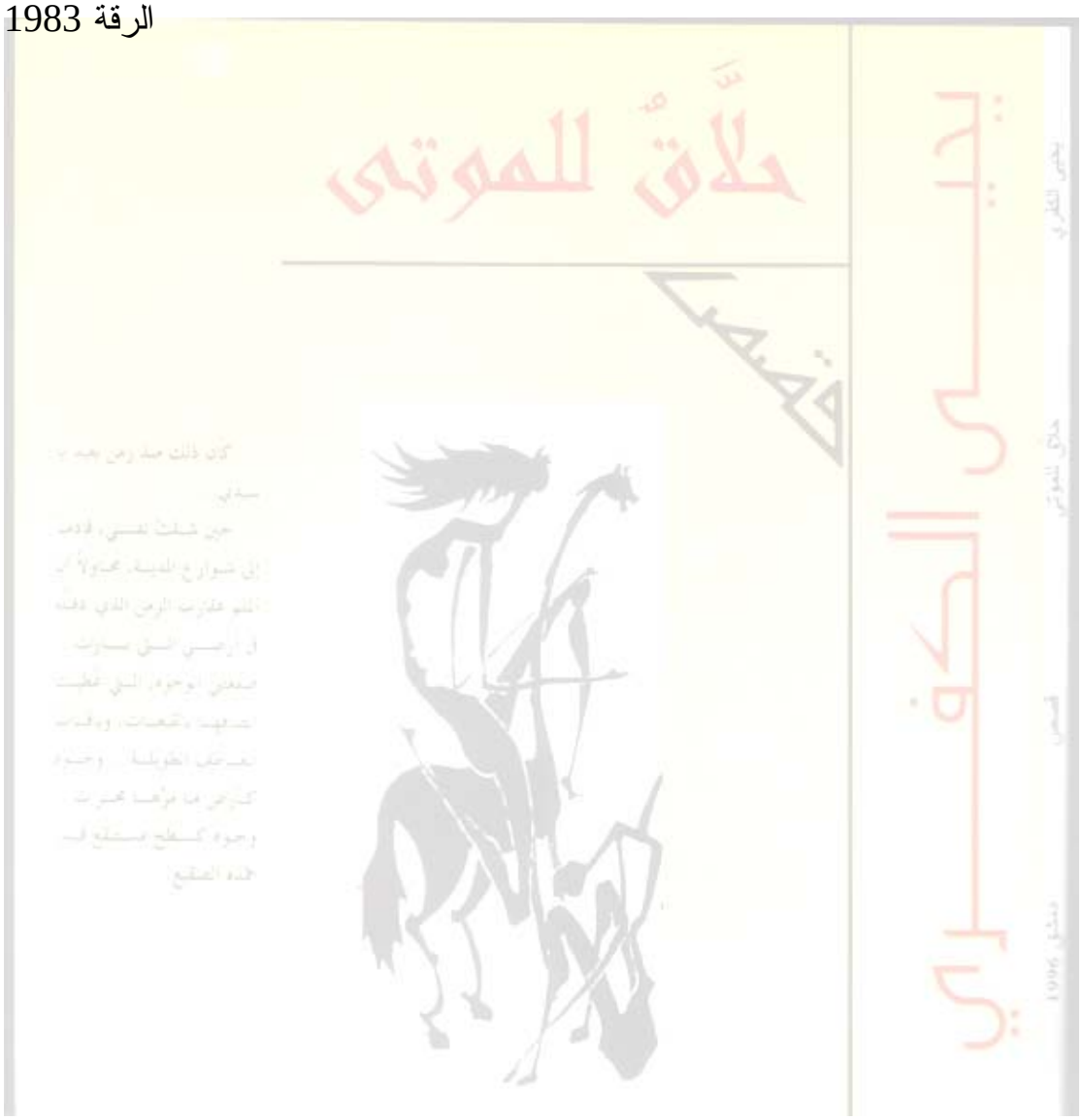

ويأتي حمود آخر

إلى أحمد... *

تغيِّبُك الجراحات

فتمضي... ناسياً

أن تترك لنا

خناجرك...

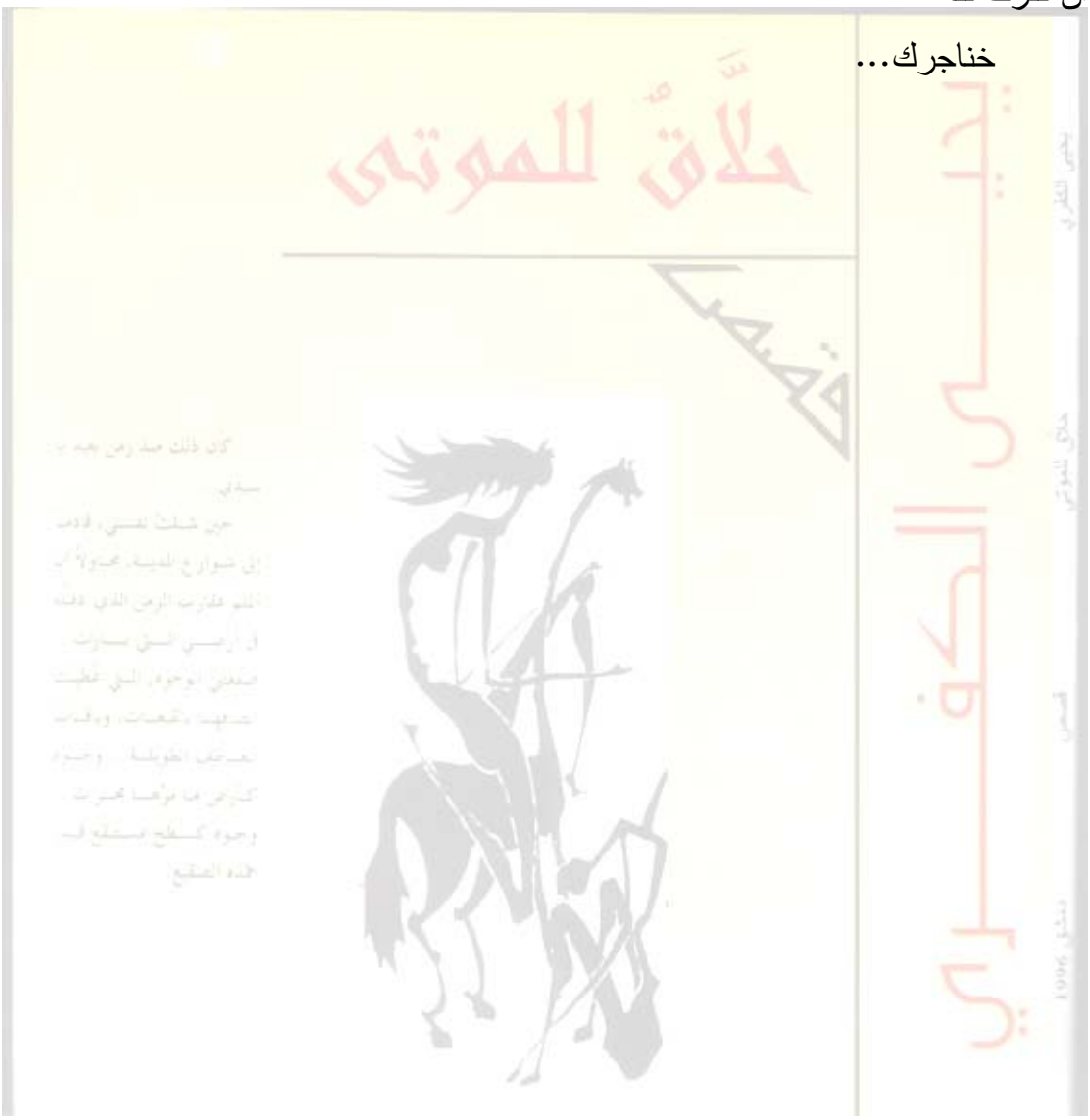

* أحمد محمود المصطفى الصديق الذي وافته المنية قبل أسبوع من صدور مجموعته القصصية الأولى "الخناجر"

حين زحفت عيناك، تتعربش التلة المطلة على القرية... كما تزحف يداك إلى صدر امرأة... حين زحفت قدماك، تزرع القبلات فوق التلة... وعندما وقفت ناشراً ذراعيك فوقها، وأنت تمج هواء القرية النقي، انساحت دموعك طويلاً.. ورأيتك مثل صليب كاتدرائية قديمة، ينبض بالحياة... هكذا رأيتك، فلاحت لك القرية جدراناً قليلة، تتشرب اللون الأسود... والبنيّ، وحتى الجنس المهرّب من المدينة كذلك... عندئذٍ حاولت مسامات جسدك أن تصرخ... أن ترفض... أن تعلن أن هذي الجدران تمتص السمّ ولابد ستموت، ورفعت عينيك إلى السماء.. كانت الغيوم تتزاحم في طابور طويل طويل، وعريض عريض، تتدافع... تتدافع... ثم تنخرط في بكائها الأزلي، وهي تحتضن التراب... رائعة كانت وهي تبكي.. وهي تقتل الجوع، فتغرز رماحها الشفافة، القاتلة في صدر القحط... وهي تخلق إنساناً لا يعرف الجوع..

ورائعاً كنت حين قررت أن تحاول تغيير هذا العالم... العالم المحشو بالهواء... كبالونات الأطفال... أو كفقاعة قطرة مطر "تتفلش" على الطريق الإسفلتي... رائعاً كنت حين قررت أن تصنع عالماً نقياً، كأحمد محمود المصطفى... أو نقاء قطرة مطر... تغمض عينيك وتحلم، وكان حلمك جميلاً، لكن سحائب الماضي المشحونة بالموت، بالقهر، بالمدينة تغطيه...

- زين يا ولدي حمود، منشانك ومنشان الربع خمسين بس...
- خمسين ألف...؟
- إي نعم، ليش بنت المختار أخير من بنتي...؟

تمزق الكلمات ذاكرتك، فتتبعثر أشلاؤها، بينما يحاصر الضباب أضواء المدينة.

- عفواً....

تعتذر للرجل الذي اصطدمت به... تتابع قدماك التهام الطريق، وبلاطات الرصيف تمر من تحتها مسرعة، وأنت تتأبط ملف أوراقك... مشرقاً حيث غرفتك.

ستظل خمسين ألف سنة تشتغل منذ الصباح الباكر حتى الليل، لتجمع خمسين ألف ليرة... مهر مريم... تعرج على الحانة... تشتري بعض ما يشتريه البعض ليلة رأس السنة "على قد ما في جيوبك" وتغوص في الشارع ثانية، وصقيع الضباب يجعل من أنفك منبعاً لشلالات مخاط...

- تعال بأول السنة الجديدة...

تدخل غرفتك وتمسح نظراتك الأشياء المبعثرة بأرضها بشكل طفولي، الكرسي وقاعدته التالفة... الطاولة ذات الثلاثة أرجل... وسرير التنك الصدئ الهابط في المنتصف... كل شيء كما تركته صباحاً... خمسة أشهر منذ تخرجت، وأنت تعيش وسط هذه الأشياء القديمة، فكانت مأساتك تتصاعد بخطها الدرامي شيئاً... فشيئاً...ما بقيت دائرة رسمية أو شركة... إلا وعدتك بالعمل.

- تعال الشهر القادم... قد نجد لك عملاً.
- وقال آخر: تعال الأسبوع القادم...
- وآخر: دائرتنا ليست بحاجة لشهادتك.
- وآخر: لا يوجد اعتماد... آسفين... وآخر.. وآخر.. وآ

نفس الكلمات، ونفس الأصوات ونفس الرتابة... تضع الأغراض وملف أوراقك. ينفتح الباب ببطء... تطل منه (أم حسين) العجوز، صاحبة الغرفة، تسده بجسمها البدين. تطلب أجرة الغرفة...

- أمهليني قليلاً...

ساعات العام الأخيرة كالسلحفاة تزحف ببطء... وأنت تحضر كأساً نظيفة...تسكب الخمرة... فتدلقها إلى أعماقك... بينما راحت أمعاؤك تتصارع في ميادين جسدك... تتقطع... تتفتت جوعاً... وألماً، تغرز عيناك أظافرها بملف أوراقك... فيستسلم لها المستقبل، كفريسة وقعت في الشرك، ولكنك لا تستطيع إمساكها... إلا بعد أن تنقضي هذي الساعات الأخيرة... فتفرع بجوفك كأساً أخرى، وتقعد منتظراً...

تتكاثف الصور في مخيلتك، تشق عليك الهدوء الطويل... الذي تغطس فيه... وأنت تتمزق ليلة الاحتضار في هذا الزمن الموبوء... فعندما دخلت إلى إحدى الدوائر تطلب عملاً... فوجئت أن رئيسها كان زميلاً لك... أيام الدراسة... وكنت تعرف أنه غير مؤهل لأن يكون بهذه الدرجة...

لكن بعد أن جلست معه قليلاً، أدركت على الفور أن جذع الكرسي الذي يجلس عليه، ليس مصنوعاً من الحديد... أو الكروم أو من خشب الزان... أو السنديان... إنما كان جسد... امرأة. يومها أردت أن تلعن العالم... كل العالم... تحدق بالصور واللوحات المعلقة إلى الحائط... فتبدو لك واضحة، رغم الغبش الذي يفصل بين حدقتي عينيك وبينها... لوحة "لغيفارا" وهو يسقي الأرض بدمه... ليلة اغتياله، وإلى جانب

- آه يا وجه مريم.

أحبك، يا من تكسر عليك تلال العشق.

المدني... شظايا

وحنايا... يختبئ فيها الدفء، مرايا،

لك يا وجه مريم، نبض قلبي، وحقول حلمي الراقص،

في جمجمة رأسي...

آه يا وجه مريم...

وتغيب مع وجهها، وأنت تلتحف بذات الليل، الذي يلتحف بـه هـؤلاء... وقـد احمرت عيناك، وأصبحتا كجمرتين في منقل... ورأسك يكبر... يتوسـع... يكبـر... يكدس العالم بين أروقة تلافيفه... تزحف النشوة في جسدك... تتململ... وفجأة يثقـب أذنيك صوت طلقات رصاص... يعلن بداية سنة جديدة...

تشعر أن مريم تقترب منك، تقترب... تـضحك.. تـصرخ.. تبكـي فرحـاً.. ترقص... ترقص... ترقص، لكن جسمك لا يحتمل ثقل رأسك فتسقط، وتحلـم طـالاً برأسك من درفة الباب، الذي لا تطل منه عادة رؤوس كرأسك.

كان الباب–باب غرفة المدير العام... كبيراً، لذا كنت تبدو، أنت الرجل الهزيـل الجسم، الناعم كرائحة الياسمين صباح يوم جمعة حزين، قزماً، لا تصل بطولـك إلـى أكرة الباب، لكن حين أصبحت رأسك في حيّز الغرفة خفق قلبـك بـشدة، وتمنيـت أن تعود، إلا أن صوت المدير جرك إلى الداخل:

- شرف أستاذ حمود.

وتقدمت.. ناعماً كيرقة كنت... وقلبك لا يزال يخفق بشدة، قال لك المدير العام، وهو يقلب سكين طاولة المكتب، يلوح بها أمام وجهك:

- يا أستاذ حمود... نحن هنا نهتم كثيراً بالوقت، ونسير على الحكمة القديمة التي عرفتها بقية الشعوب، والتي تقدمت حضارياً لأنها سارت عليها... الوقت كالسيف إن لم تقطعه... بترك. أنت اليوم تأخرت عشر دقائق، إذا تكرر هذا التأخير سنلجأ لاتخاذ عقوبة شديدة بحقك. أرجو أن تتذكر أنه عليك النهوض من حضن زوجتك قبل عشر دقائق من موعد نهوضك الطبيعي...

- يا سيدي لست متز...

وانتهت محاولتك لإيضاح أنك لست متزوجاً وإيضاح السبب الذي جعلك تتأخر بِبَتْرِ المدير العام الحديث وبَتْرِكَ من غرفته... فخرجت منزعجاً إلى غرفتك حيث الطاولة في ركن قصي من غرفة تحازي دورات المياه، وبوفيه أبو ممدوح.

جلست... نفضت رأسك ثم انكببت بها على الورق ومصنفات صفراء قديمة. حين عدت مساء كانت ما تزال كلمات المدير العام تجول في رأسك، لذا بمجرد أن وصلت "ربطت" الساعة على السادسة صباحاً، خلعت ملابسك، ونمت.

صباحاً.. حين أفقت من نومك كانت الساعة قد تجاوزت الثلاثين دقيقة بعد السادسة، تأخرت... وبسرعة ارتديت ملابسك، وخرجت، خرجت ناسياً أن تغسل وجهك، وفي أول باص للنقل تشبثت، واضعاً قدماً فيه والأخرى على الحديدة الواقية لمقدمة الباص، وأمسكت زند المرآة فصاح بك السائق:

- لا تكسر زند المراية يا سيد....

أفلتّها، كدت أن تسقط لو لم يمسك بك أحد الركاب من ياقة قميصك، وشدك إلى الداخل فتمزقت الياقة. في ذلك اليوم عدت متأبطاً رزمة من الأوراق، وفي يدك كيس فيه ثلاث ساعات من نوع المنبه الصيني، ومع أول نسمة باردة من الهواء أحسست بالعرق النديان على جبينك، وتذكرت المدير العام الذي لم يكن يغيب عن ذهنك، فلم تنم باكراً كالعادة، بل سهرت حتى وقت متأخر وأنت تحاول حفظ مواد النظام الداخلي للدائرة، وخاصة بند العقوبات، وفي الصباح عندما كنت تتجه إلى عملك، كانت المدينة لا تزال نائمة، فشعرت بالارتياح، وسرت طويلاً حتى مكان عملك، فوصلت قبل عشر دقائق...

- طز في المدير العام...

قلت في داخلك، ووقفت تنتظر مجيء الموظفين... مرّت الدقائق العشر بطيئة، وشعرت بثقل الزمن حين يكون في غير صالحك... انتظرت طويلاً قبل أن يأتيك حارس المبنى مبادراً بـ "صباح الخير"... سألته:

- خير... أرى أن أحداً لم يأت بعد؟

- سلامتك أستاذ حمود... اليوم جمعة "عطلة".

ووقفت دهشاً، لم تشتم أحداً، لم تضحك، أو تصفِّر مستغرباً كيف غاب عن بالك يوم العطلة، لم تكن تعرف ماذا تفعل، فقط نظرت إلى رزمة أوراق النظام الداخلي الذي بيدك، حدقت ببند العقوبات، وفكرت أن تحطم المنبهات عندما ستعود إلى البيت، لكن جرس المنبه أيقظك...

تتقدم فرحاً، باتجاه موظف الديوان... يبادرك:

- آسفين أستاذ... خطة الاستيعاب لم توضع بعد... تعال بعد شهر...

- تعال بعد... بعد...

تتراجع... تتراجع... تخرج لا ترى في الشوارع أحداً... يا حمود السلوم.. اِبْكِ وَدَعْ هذه الدموع تنسكب على جثتك التي تحترق... قد تطفئ النار المتأججة فيها... قد تهدِّئ الألم الذي يلتهمها بلا رحمة... اِبْكِ، لكن بصمت، فهذا الانتظار يجعل من أعصابك أوتاراً، يعزف عليها ألحاناً تخنق الطفل الذي يسكنك، تحرقه ليتحول رماد جسده إلى بذار... فتسقيه تلك الدموع، ابك يا صديقي، ابك وبصمت أرجوك، ودون أن تغمض عينيك... فمن حقك أن لا ترى إلاّ المقاهي وهي تعجُّ بالرواد.. ليل نهار... من حقك أن ترى كل شيء أسود... ما دام الضباب يندف رذاذه... كثيفاً... فها هي العجوز تطرق بابك ذات صباح... وكنت ميتاً، فلم يجبها أحد... ولمّا دخلت، احتفظت بحقيبتك، بدل أجرة الغرفة، وعندما جاءت سيارة الإسعاف والشرطة لتأخذك إلى براد المستشفى لأن الحكومة تكفّلت بمراسيم دفنك–كان في أول الشارع.. شاب يقبل.. شاقاً طريقه بين الناس وهو يحمل حقائبه... وحين وصل إلى العجوز... قال لها...

- أخبرني حلاق الحارة أن لديك غرفة فارغة... اسمي حمود الطعمة... طالب متخرج وأبحث عن عمل..

وعندما انتهى من كلامه.. تفرَّستُ بوجه العجوز... بوجهه... بوجهك أنت... بوجوهكم، ثم رفعنا أيدينا نقرأ الفاتحة على روح الحاضر اللاحق.. فقد جاء رجل آخر.. أو.. أو حمود آخر... يستعد للدخول إلى البراد، فتحاصرك جدران الغرفة

وها أنت الآن، تقف مطلاً على القرية كصليب، تاركاً خلفك أربعة عشر عامـــاً، سحقتها المدينة كما تسحق العاهر بكعب حذائها بقايا سيجارة... أربعة عشر عاماً تمنيت لو تنتهي. وعندما انتهت... تف... بصقت بوجهك العاهرة... أربعة عشر عاماً وبدايتها تربطك اللحظة بذلك المساء.. كان صحراء قاحلة، ومريم الفرس الجامحة –وقد هـــدّها العدو– تنزف دمعاً وعرقاً– كما يرشح الدن أو قربة الماء.. وفي تلك الصحراء.. فـــي ذلك المساء المجبول بالعتمة، كنت الفارس الذي يترجل... وإلى المدينة ترجلت.. تفـــتح عينيك.. وكنت ما تزال صلیباً... وسنابل القمح التي تحني ظهرهـــا... تبكـــي النـــدى فرحاً... ومريم تركع أمامك بخشوع.. بينما يقوم الفلاحون بحرق خمسين ألـــف ليـــرة، تقبلُّهم جميعاً ... وتنحدرون باتجاه حقول السنابل.

الرقة 1982

أبو صالح يخوضها حرب استنزاف

في الساعة الرابعة والنصف صباح أحد الأيام من عام الـ 48، خرج نايف العبدو من حيفا، قاطعاً ساحة الميناء–ساحة القناصة بأعجوبة، خرج عائداً إلى –المتاعية– القرية التي غاب عنها طويلاً، باحثاً عن عمل، فكان ميناء حيفا مصدراً لرزقه، يومها سار مئات الكيلو مترات على قدميه، مارّاً بالبيارات وهو يقسم إنه لن يركب زوارق الإنكليز التي تقلّهم إلى عكا، وإنه لن يغيب عن الميناء طويلاً، بل عائداً إليه لا محالة...

وفي أول يوم وصل فيه القرية، قرر أن يشتري عربة وفرساً بالمبلغ الذي جاء به من عمله بالميناء.

- شو يا أبو صالح، مالك شارد؟
- ها...
- بدكاش تخلص حفر، هضول الكلاب قرّبوا يجوا.

قطع حديث عبد الرحيم الأحمد الذكرى، وتابع الاثنان الحفر، لكن الذكرى تابعت طريقها، ومن البعيد لاحت له الحرائق، ومن بينها ظهر ابنه صالح يرتدي بزّته العسكرية، وعلى فمه بزغت ابتسامة، رغم النار التي أكلت وجهه يوم الإغارة أثناء حرب الأيام الستة، رنت بضع كلمات في رأس نايف العبدو وكانت الأخيرة:

- يابا، ظل على تخرجي شهر، رح آخذ إجازة قبل التحاقي بالقطعة.

وانساحت دمعتان على وجنتيه... حدّق عبد الرحيم الأحمد بوجه أبي صالح، الذي توقف عن الحفر، وتطلع نحو الأفق... كان كل شيء يبدو هادئاً، لكنه الهدوء الذي يسبق الرعد في منتصف ليل شتائي، مسح بكمه الدموع والعرق الممتزج بها، وسأل:

- فيش أخبار جديدة؟
- زي ما سمعت، جحيم بتل الفرس...

جال نايف العبدو بنظره، ماسحاً الأرض الشاسعة، وكانت مليئة بالحفر كوجه مجدور.

- رح خلّي هالتل، تل فرس جديد، بدنا نشتري عربات... ظل معك مصاري؟
- لا... بستدين من المختار... شو رايك؟
- طز في المختار، قاعد ببيته مثل النسوان... شاطر يفتح على إذاعة لندن ومونتيكارلو وإسرائيل، ويتفذلك عن قرارات الأمم المتحدة، وبس تطلب منه

جفف كفيه المتعرقتين، وتابع الحفر....

كانت الشمس في قبة السماء، والحرارة لم تعد تطاق، حين أعلن انتهاء الحفرة، التفت إلى عبد الرحيم... طلب منه إحضار العربة وتوجه لمساعدته. وضعاها داخل الحفرة... وجّها عموديها إلى أعلى، ثم قاما بطمرها وإخفائها تاركين العمودين يظهران بشكل جلي...

تطلّع حيث الجهة التي ستأتي منها طائرات العدو بعد قليل، أنصت إلى البيان الصادر عن الراديو الصغير الذي بدأ يضعف صوته وينوس... رفعه من مكانه... وعلى صخرة صغيرة، قرّبه من أذنه، ثم رماه بعيداً:

- تفو... انتهت الحرب على الجبهة المصرية... كلاب، والله لخلي هالأرض مقبرة لذخيرتهم، عبد الرحيم...

كان عبد الرحيم يلمّ العدة مهيئاً للعودة إلى القرية...

- خلينا نستعجل نرجع عالقرية... صرنا بحاجة لعربات أكثر...

الكلاب استنجدوا بالأمم المتحدة... وقفت الحرب عالجبهة المصرية... يعني رح يركزوا علينا.

- يا الله...

سوّى نايف العبدو التراب حول العربة الرافعة رأسها إلى السماء بقدميه. ألقى على المكان نظرته الأخيرة.. كمن يودّع فقيداً...

التفت ناحية الأفق وضحك... ضحك طويلاً... ولم تنقطع ضحكته عندما أغارت مجموعة من الطائرات على التل، وأفرغت ما بجوفها من ذخيرة، بل تردد صداها بعد أن صمت الانفجار حتى وصل إلى المتاعية، حيث الحدود... ممتزجاً بصراخ عبد الرحيم له... وحين وصل إلى التل، كان كل شيء قد هدأ، ولا شيء إلاّ بضع أشلاء/أبو صالح/ والعربة، ورائحة دواليبها المحترقة تملأ السهل المملوء بالحفر... لكنّ أحداً لم ينسَ ضحكته...

ففي كل مغيب يتردد صداها من القبر المعرّش كدالية، المظلّل بعربة تشمخ برأسها إلى السماء، كمدفع يستعدّ لحرب جديدة، وحوله تحوم الفرس محدقة صوب الأفق... تظللها شجرة زيتون ما زالت تكبر....

دمشق 1988

السوط

الليل حيوان مفترس، يمضي بشراسة نحو المدينة، يتغلغل فيه الجـوع والقتـل رغم أن الحارس يجيء ويدبر أمام محرسه بعينين كعيني ثعلب وأذنين كأذني أرنـب. الشوارع تحتضن الكلاب والقطط الباحثة في تلك النفايات عن شـيء تقتـات بـه دون جدوى، الظلمة عباءة بدويّ سوداء تغطي الجسد "المدينة". مطرزة بالسكون المولود من رحم الضجيج الذي كان قبل ساعات يزمجر بالشوارع المكتظة بالجماهير.

كل شيء حولك يوحي بالسكون يوحّي بالسكون، الليل، الطريـق الخاليـة الطويلـة... صمت.... صمت.... صمت..

- لقد تعبت يا بك... أريد أن أستريح؟

فجأة يتسلل صوت أبي حسين يخترق ذاكرتك، يخرجك من الصمت الـذي يلفـك، صوت خافت يصدر من فم ذلك العجوز، ذي الشاربين الكثيفين، الـصفراوين فترتـسم صورته أمام عينيك من جديد، حاني الظهر، نحيف الجسم متوسط القامة، هادئ الطبع، وئيد الخطوات، ومن بين شقين صغيرين تطلّ عيناه اللتان لا تتوقفـان عـن الحركـة، لتتفحصا المكان الذي يجلس فيه بحركة لا شعورية:

- يا بك، لقد تعبت أريد...

وقبل أن يكمل العجوز كلامه يستدير "أبو رشيد أفندي" نحوه وبغضب شديد يتـدفق معه زبد من طرفي فمه قال:

- اسكت أيها العجوز القذر عليك لعنة الشيطان، تابع شغلك... قال شو تعبـت... بدك ترتاح وتشتغل على كيفك؟

- لكني تعبت فعلاً يا بك...

تنفض جمجمتك يمنة ويسرى، تنفضها جيداً... تتكوّم صور الماضي برمّته، مبـدّدة ظلمة هذا الشارع. كان الوقت صباحاً من أصباح الصيف، والندى يخيم علـى سـنابل القمح، الحصادون آلة تقشط الحقل لتحوّله إلى جبل من حبوب، ومن ثمَّ إلـى أقـراص خبز أسمر يحلمون به... لأنهم كانوا يأكلون خبز الشعير الذي ما إن يشم الهواء حتـى يتحول إلى خبز من حجر.

الرؤوس مطأطأة بجانب السنابل، وفي كل جمجمة حلم يختبئ كمنشور سرّيّ... في هذا الوقت ارتفع السوط عالياً وحجب أشعة الشمس عن الحصادين.. ثم هوى على رأس

يزحف الخبر إلى الآذان بصمت، ينتشر بسرعة في الحقل... ترمي المنجل وتركض نحو "القاووش". ترفع المناجل، يتبعك الفلاحون وزوجاتهم، يأخذون طرقاً مختلفة خلفك وصيحات عالية تمزق السهول الممتدة أمامك، يصل إلى أذنيك صوت الأفندي:

- لوين يا جماعة، ارجعوا لشغلكم، لوين رايحين؟

- أبو حسين مات... قَتَلْتُه.

تردّ عليه، يشتمك بكلمات بذيئة، تتابع الركض نحو بيت أبي حسين، تطاردكم الخيول لإرجاعكم إلى الحقل دون فائدة، تصلون إلى الساحة، تلتفّون حول الجثة المغطاة، تكشف عنها، تعرِّضها للشمس، ترتفع الصيحات وولاويل النساء تدق أبواب السماء تعلم قدوم ضحية جديدة من ضحايا الأفندي. يلحق بكم ورجاله، يقفون أمام الساحة، يرقبون الأمر بصمت.

- شو ولك يا عبد الله المنحوس.. صاير زعيم يا كلب.

تثقب أذنيك، تندار نحوه، تقترب، يقترب وبيده السوط الأسود الذي لم يزل يلعق بقايا طعم جسد العجوز. الفلاحون يحدقون بكما، أنت وبيدك منجل التقطته من يد إحدى النساء، وأبو رشيد وسوطه، وصوت "محيميد الجعل" ينخر ذاكرتك:

- إنه (نغل) إذا رفس أحداً كانت القاضية... فقط، بأن يضغط على زناد العصملية.

الغول بعينه كان... ينتصب أمامك كعمود إسمنتي... يغيب صوت محيميد الجعل ويبقى النغل، الأفندي ورجاله يتأهبون مثل كلاب الصيد، ترفع المنجل عالياً، تهوي به على رأسه، تتدفق الدماء كساقية مكسورة، تلطخ ثيابه، ترفعه ثانية، لكنك لم تشعر أنه سقط في موضعه، فقط تشعر أن الصراخ قد ازداد ثانية بشكل عالٍ جداً.

عندما فتحت عينيك كانت يداك وقدماك مقيدتين إلى باب الزريبة من الداخل، وروث البقر يعبق بخياشيمك برائحته النجسة...

الظلمة تستبد على المكان، تنشر لونها المكروه وصوت الثيران وهي تخور تمزق طبلتي أذنيك... تنظر من شقوق الباب، يبدو أن أحد رجال الأفندي يروح ويجيء أمام

تحسّ بألم يهزّ كيانك، تتلمس أماكن الوجع آ.... هنا في ظهرك ينفر شريط أحمر من لحم، صنعه صراخ السوط النازل ملتوياً على جسدك، الآن تشعر أنّ آلام وأوجاع العالم تقيم في جسدك، تعسكر فيك وفي أفراد القرية. هل تظن نفسك إنساناً من وجهة نظر الأفندي.. لا... لا يا عبد الله العلوان... لست إلاّ آلة، عليك أن تذهب للعمل منذ طلوع الشمس حتى يختفي آخر خيوط ضوء الغسق، فتعود خائر القوى، منهكاً... تغوص في الوحول.... مبلل الثياب أيام الشتاء، ترتجف من البرد... تلجّ باب الحوش مسرعاً... تدخل الغرفة، تتجه نحو الجمرات الملتهبة في قعر "الصاج"... تمدُّ يدك إليها، تلتقط بعضها كي تشعر بالدفء...

تعاود النفخ في يدك لتحافظ على الدفء الذي تسرّب إلى عروقك:

- هل يوجد طعام يا أم نجيب؟
- لم يبقَ شيء من البرغل... حتى إن الولدين ناما جائعين...

تنحني تقبِّل ولديك، تخلع ملابسك وترميها إلى الصندوق...

تطفئ أم نجيب شعلة الكاز...

تنام لترتاح من عناء تعب يوم، مهيّئاً نفسك لليوم التالي... آلة ميكانيكية ذات نظام منتظم الحركة. يقف عاملاً عليها ذلك الأفندي... أبو رشيد... يسيِّرها بإرادته، كيفما يشاء، تلك قريتك "المتاعية" التي تحاذي الحدود الجنوبية، وها أنت تجلس مسجوناً في هذا الإسطبل... ترتجف من البرد... تتكوَّر حول نفسك، تبدو كقنفذ. ساعة هربت انطلقت رصاصة اخترقت كتفك اليمنى فمزقت سكون القرية التي كانت تغطُّ في نوم عميق... ركضت من زقاق ضيق إلى زقاق أكثر ضيقاً ورجال الأفندي يطاردونك، وحين ابتعدت عنها التفتَّ خلفك، كانت العتمة تحجب عن عينيك رؤية القرية... أحسست أن قلبك قد سقط إلى أسفلك... ثم تابعت نحو المدينة لتبدأ من هناك.

الذاكرة والأرض كل ما تبقى من الماضي الذي راحت صوره تندفع مثل اندفاع أمواج البحر نحو رمال الشاطئ، تندفع بقوة وتنحسر لتلتحم مع بعضها مشكلة المد والجزر.

ماذا تتذكر لتتذكر؟... المداهمات التي كان يقوم بها رجال أبي رشيد بينما كنت تدير مع الفلاحين اجتماعات سرية تحت جنح الليل...

جمعة الشعلان أحد الخدم الذي ضربته ابنة أبي رشيد عندما ضبطته يقرأ عنوان كتابها "الثورة الفرنسية" الذي كان موضوعاً على طاولتها.

"سمعو" الذي قتله الأفندي لا لشيء، فقط ليرى الأخير نفسه أنه باستطاعته إصابة هدف على بعد قريب...

اركض يا عبد الله.... اركض وإياك أن تسقط شيئاً من حلويات الأولاد... طبعاً أصبح لك عيد ميلاد، أحمل لهم الحلويات والتفاح والكاتو... هه...هه...والله زمان يا عبد الله العلوان، بعد أن كنت لا تذوق رغيف القمح أصبحت تأكل الكاتو وتحتفل بعيدك.. اركض، فالسماء تفتح أبوابها ترسل أمطاراً غزيرة تجوب بسيلانها الطرقات.

في الصباح... حينما وقفت على "الجالي" ترقب الأرض لاح مقر الجمعية الفلاحية –منزل أبو رشيد سابقاً– كان ينتصب بشموخ، أما ظلُّك فقد امتدَّ يفترش الحقل والسهول، تتحسس كتفك اليمنى وجسدك ثم تبتسم.

حلب–شباط–1983

تراتيل شديدة الكآبة

بيروت ... من أين

الطريق إلى نوافذ

قرطبة؟

1. ترتيل الروح

للذين كعبتهم الأوسمة

ويتلون الصلوات، بخشوع

وصمت الموات،

وعلينا... يفوِّتون الأزمنة...

ليس من يستطيع أن يوقف

الحياة.

2. ترتيل الآب:

هل رأيت القمر؟ سألت.

لم يكْ أحدٌ يجيب، قلت لنفسي ربما لم

ولن يطلع ثانية، رغم أن الحصار عن المدينة

انفكَّ، مخلفاً إياها أكوام ثكالى وحجارة وتراب.

- هل رأيت القمر؟

- هل رأيتم القمر؟

ولا أحد يجيب، ولا ليل يجيب.

آه يا أحمد...

هدَّتك الطرق التي جبت، شتاءات طويلة أرهقت هذي القامة يا أحمد وليس ثمة ما يوحي بالحياة، سوى السراب المتراقص على دروب المدن التي أدرت لها ظهرك باحثاً عن القمر، ليس ثمة ما يوحي بالحياة سوى نعيق غراب على الأسوار، وعواء لابن آوى يجيء منبعثاً من أعماق هاتيك المدن.

شتاءات طويلة مضت، والقمر الذي غاب حين دخلتِ العسكرُ المدينةَ لمّا يزل غائباً.

شتاءات وأصياف طويلة مضت... والآن كل شيء يبدو هادئاً أو هادئٌ فعلاً... فالرصاص سكت، واختفى عنين العجلات العتيقة، وما عاد هناك صوت لجدار هدَّته قذيفة، إلاّ قلباً غاب عنه قمره، لا يملك إلاّ سؤالاً يضجّ بين حين وآخر كعواء ابن آوى فوق جثة:

- هل رأيت القمر؟

كل شيء قد هدأ الآن... وأنت الآن يا أحمد، تقعد تعباً أمام باب البيت، تبحث في رأس الحارة عن قادم.

قبل شتاءات وأصياف كثيرة -لا أدري كم- كانت الحارة تمتلئ بهم، فيدوّخون ساكنيها بضجيجهم، ثم لا يدرون من أين تأتيهم اللعنات... وحين يطاردهم أحد ما، يتبعثرون كحبات سبحة رجل عجوز قُطِعَ خيطُها فجأة... يتلاشون مع صدى أصواتهم المتلاشية.

- هل رأيت القمر؟

وأحسست ببرودة السؤال، مثل هذي الليلة الباردة، التي لم تأتِ منذ شتاءات وأصياف بعيدة، كبرودة أول ليلة وقفتُ فيها أسأل جواباً عن القمر... يوم تلمس قلبي طريقه إلى العتمة، في مساء الخامس من كانون حيث لا يخرج إلى برد الصقيع المعسكر مع العسكر أحد، خرجت أنا، أحمد الياسين، أبحث عن آخر ما تبقى من أولادي، عن آخر قمر لي.

آه أيتها المدينة..

يا مدينة لا تشبه في الموت إلاّ بيروت.

تجيء إليك فيالق العسكر، تتدلق على شوارعك ترتل سور الحصار، وتقيم الأسوار حولك، دبابات، ومدافع وجنود، ونجوم، النجوم التي أغفت على الأكتاف منذ زمن صَحَتِ الآن تزيل عنها غبار الهزائم... والصدأ.

آه أيتها المدينة...

هذا نحن نغلف هزائمنا بالمسافات إلى قرطبة، ونغني فتمتطينا الهزائم، نغني من على المنابر معلنين بلا استحياء أن "لكل جواد كبوة" قل كبوات... هذي هي الحياة الموات.

هذا هو الزمن الموات..

لماذا يا الخامس من كانون بارداً ذاك الشتاء جئت؟ أما كنت تستطيع إيقاف الشمس عن مغيبها، كي لا تأفل، ويُحْتَضَرُ السؤال في احتضار المساء...؟

- هل رأيتم القمر؟

نعم...وقالوا:

- تكسَّر على الباب، وتشظَّى الجسد الناحل حين اخترقته القذائف، كان أوصل إليهم شاياً، وعاد والخوف يختلج فيه، وعندما استدار وأصبح ظهره لهم... غربلوه... أو... أو غيَّبوه.

... ووصلت حيث أشاروا... حيث تكسَّر على الباب وتشظَّى... لم أجد منه شيئاً... فلجسده الناحل عظام تفتتها النسمات فكيف القذائف والرصاص...؟

لم أجد منه شيئاً...سوى بركة من دم، تترقرق حيث سقط... لم تجف... حدقت فيها... دمها قانئ، ورائحته تخترقني، ولا أدري أين تستقر، في الشرايين، أم في القلب؟

ياه يا ولدي...

قبل لحظات كنت أمضي مسرعاً لألقاك، ولمَ لا ألقاك... فأنت ما تبقَّى... الآخرون قد ذهبوا... لذا مضيت مسرعاً حين انفلتنا من طوق شكلَّه الجنود، وهم يسوقوننا إلى الملعب البلدي، كنّا مئة... مئتين... لا... كنا أكثر من ذلك... مئات... المهم أنّا كنا كثر نسَاق إلى هناك... وكان لابد لنا من المرور عبر سوق الجزارين، حيث أغلق الجزّارون دكاكينهم، لكنَّ الذبح ما زال مستمراً... الدم يسيل... يشكل بركة كبيرة.. بركاً... بحراً من الدم...

حين أصبحنا في بوابة السوق... رأينا الجثث قد تكوّمت على أرضه... ومن بعيد سمعنا صرخات... صرخات...

كانت صرخات رجل توسّط السوق، الجثث، اقتربنا قليلاً، وما زال هو يتوسط الجثث، ينحني بين الفينة والفينة.

- لابد أنه يبحث عن قريب له بين الجثث.

قلت في نفسي، وربما قال الكثير ممن معي في أنفسهم ما قلت... أردفت:

- عسى يلقاه حياً، أو... أو ميتاً، المهم أن يجد له أثراً.

كان لزاماً علينا أن نمرّ والجنود الذين يسوقوننا، عبر سوق الجزارين إلى الملعب البلدي، اقتربنا، موجة هائلة من البشر الذاهبة للذبح أو للغياب، تجتاح سوق الجزّارين المغلقة دكاكينهم. الرجل يصيح، يعوي، اقتربنا منه، دار حول نفسه دورات قليلة، ثم انحنى يقطِّع الجثث التي تحته بضربات من "بلطة" حادة.

توقفت الموجة الهائجة بمكانها، في بوابة السوق، لم نتحرك قيد أنملة، نحن مئات بلا سلاح، نقف في بوابة السوق، بمواجهته... ما عرفنا، أهي أسنان تلك التي برزت من فمه حين فتحه، أم حراب؟

حدّق بنا للحظات، ونحن المئات بلا سلاح انغرزنا في أماكننا، والجنود الذين يسوقوننا، يعلّقون أسلحتهم على أكتافهم، وينظرون إليه دهشين، بل خائفين. قال أحدهم للآخر:

- أليس هذا...؟
- أجل... هيا... وإلاّ سنموت.
- هيا..

وصرخ الجنود بنا حين عوى الرجل، وركض نحونا والبلطة بيده تقطر دماً... ها قد عرفه الجنود ... كان منهم، يرتدي مثلهم، لكنّ سلاحه يختلف..

- هيا.. اهربوا... ستموتون... سنموت...
- هيا...

أدرنا ظهرنا للرجل، وانخرطنا والجنود في الركض، تلاحقنا صرخاته وقطرات الدم السائلة من بلطته، فانفرط الطوق الذي شكلوه حولنا، حين كانوا يسوقوننا قبل لحظات إلى الملعب، الزنزانة، المذبح... ومضيت إليك مسرعاً لألقاك... فما وجدتك، ما وجدت منك شيئاً.. أهكذا تغيب.. لتغرقني العتمة...؟

أيتها المدينة... أين قمري؟

يا الله... أين قمري؟

أيها السادة... أين قمري؟

ها أنا أسألكم الآن... لكن، ذات يوم حين أعلّق متأرجحاً على مشانقكم، وأنتم تقفون أمامي، تنظرون عالياً، كي تروا وجهي أنا الفوق، وأنظر إليكم وأنتم التحت، فلا أرى إلاّ رؤوساً تتوسط أجساماً قد ضُغِطَتْ لأني فوق وهي تحت، رؤوساً ملأى بطرق معدة لإعدامات جديدة. ساعتئذٍ ستكون قدماي بمستوى وجوهكم، ولن أتوانى عن ضربها بقدمي، وإن لم أستطع فعل ذلك، سوف أصعد بروحي إلى السماء وأنتظركم هناك عند الله حتى تجيؤوا، ولابد من مجيئكم... عندها سترفع لكم البطاقات الحمراء للخروج من الجنة.

دمشق-1987

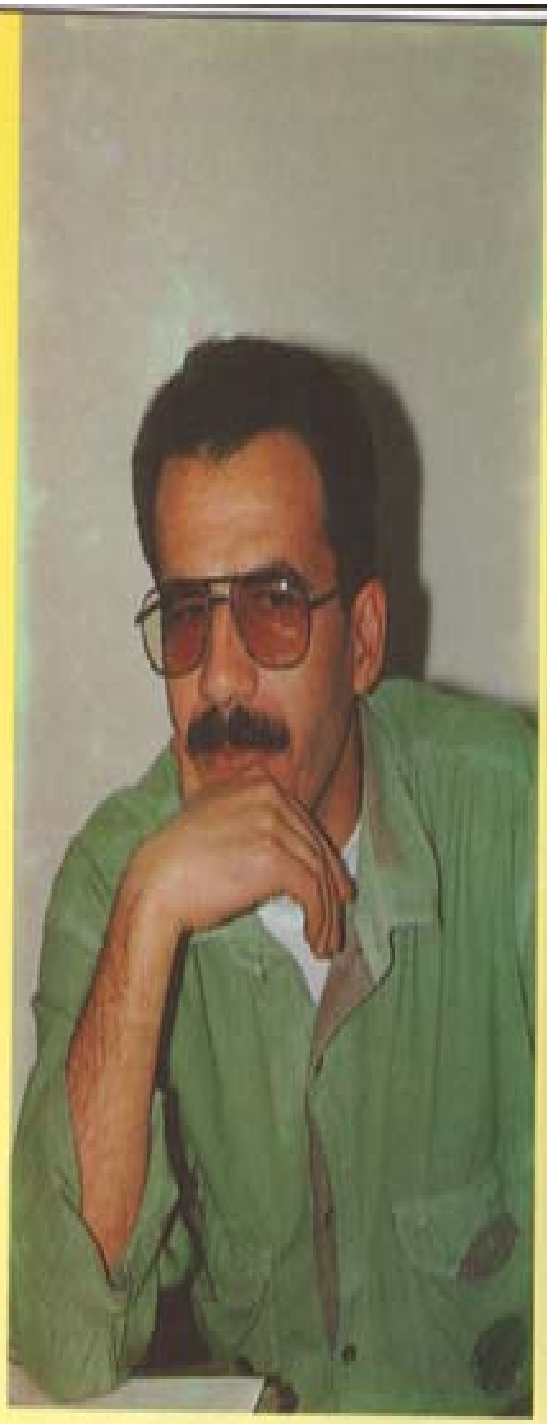

قيد الطبع

1 . أحلام مخرج مبتدئ قصص

2 . الخلاّق مسرحية

- مواليد 1961
- إجازة في الفنون المسرحية قسم التمثيل
- دبلوم هندسة ديكور تصميم داخلي.
- نشر العديد من القصص في دوريات محلية وعربية.
- حاز على عدة جوائز في مجال القصة
- عضو نقابة الفنانين.

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story